جمعية أنصار السنة المحمدية
فرع بلبيس – اللجنة العلمية

سلسلة الواعظ

٤

إشراف ومراجعة
د/ صبري عبد المجيد فضيلة الشيخ/ أحمد بن سليمان

إعداد
اللجنة العلمية

أبناؤنا إلى أين؟ ومن المسئول عنهم؟

الحمد لله والصلاة والسلام على رسولنا محمد بن عبد الله المبعوث رحمة للعالمين، وبعد

فإن الأبناء هم جيل القدوة، والقيادة، ولذا اهتم بهم الشارع الحكيم من البداية، ففي الصحيحين من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال " كُلُّكُمْ رَاعٍ فَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، فَالأَمِيرُ الَّذِي عَلَى النَّاسِ رَاعٍ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْهُمْ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ عَلَى أَهْلِ بَيْتِهِ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْهُمْ، وَالمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ عَلَى بَيْتِ بَعْلِهَا وَوَلَدِهِ وَهِيَ مَسْئُولَةٌ عَنْهُمْ، وَالعَبْدُ رَاعٍ عَلَى مَالِ سَيِّدِهِ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْهُ، أَلاَ فَكُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ". (١)

والراعي على الشيء هو الحافظ المؤتمن الملتزم بصلاح ما قام عليه، وما هو تحت نظره فهو مطالب بالعدل فيما أتمن عليه، ولا يكون العدل عدلا إلا بالمحافظة على حق المؤتمن عليهم، والقيام بمصالحهم الدينية والدنيوية، ومن جانب آخر تتضمن تقوى الله في المسئول عنهم.

ففي حديث معقل بن يسار رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: "مَا مِنْ عَبْدٍ يَسْتَرْعِيهِ اللهُ رَعِيَّةً، يَمُوتُ يَوْمَ يَمُوتُ وَهُوَ غَاشٌّ لِرَعِيَّتِهِ، إِلَّا حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ. (٢)

وهذا ظاهر في التحذير من غش المسلمين، لمن قلده الله شيئاً من أمرهم، واسترعاه عليهم، ونصبه لمصلحتهم في دينهم ودنياهم، فالتفريط في حق من أتمن عليهم غش.

أرأيتم خطورة المسئولية التي يتنافس عليها المتنافسون؟ ففي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال: رسول الله ﷺ ((مَنْ حَمَلَ عَلَيْنَا السِّلاَحَ فَلَيْسَ مِنَّا، وَمَنْ غَشَّنَا فَلَيْسَ مِنَّا)). (٣)

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال: رسول الله ﷺ " مَنْ غَشَّنَا فَلَيْسَ مِنَّا، وَالْمَكْرُ، وَالْخِدَاعُ فِي النَّارِ)). (١)

---

(١) صحيح البخاري (٣/ ١٥٠) رقم ٢٥٥٤، صحيح مسلم (٣/ ١٤٥٩) رقم ٢٠ (١٨٢٩).

(٢) صحيح مسلم (١/ ١٢٥) رقم ٢٢٧(١٤٢) واللفظ له، صحيح البخاري (٩/ ٦٤) رقم ٧١٥٠.

(٣) صحيح مسلم (١/ ٩٩) رقم ١٦٤(١٠١).

منشأ الإصلاح والإفساد:

من الأسرة، والأسرة من زوجين، ولذا اهتم الشارع الحكيم بهما ابتداءً، ففي الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال " تُنْكَحُ المَرْأَةُ لِأَرْبَعٍ: لِمَالِهَا وَلِحَسَبِهَا وَجَمَالِهَا وَلِدِينِهَا، فَاظْفَرْ بِذَاتِ الدِّينِ، تَرِبَتْ يَدَاكَ ". (٢)

فهذا نص جمع بين الإخبار، والإقرار، والاختيار، وفيه خير الدنيا والآخرة، والخاسر الشقي التارك لاختيار رسول الله ﷺ إذ اللائق بذي الدين والمروءة أن يكون الدين صوب نظره في كل شيء، لاسيما فيما تطول فيه صحبته، فأمر النبي ﷺ بتحصيل صاحبة الدين، والتي هي غاية البُغية.

وفي المقابل المرأة كذلك، بمفهوم المخالفة من النص، فهي مأمورة بانتقاء صاحب الخلق والدين، وذلك بلازم قوله ﷺ " إِذَا خَطَبَ إِلَيْكُمْ مَنْ تَرْضَوْنَ دِينَهُ وَخُلُقَهُ فَزَوِّجُوهُ، إِلاَّ تَفْعَلُوا تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ، وَفَسَادٌ عَرِيضٌ. (٣)

وبلازم قوله ﷺ ". . . . . إِنَّمَا النِّسَاءُ شَقَائِقُ الرِّجَالِ ". (٤)

وعلامة التدين الاستقامة على ما عرف المسلم من دينه، بين افعل ولا تفعل على قاعدة قوله تعالى في جانب الحلال {تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلاَ تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ

---

(١) **إسناده حسن** أخرجه ابن حبان في صحيحه (٢/ ٣٢٦) رقم ٥٦٧، والطبراني في المعجم الكبير (١٠/ ١٣٨) رقم ١٠٢٣٤، وأبو نعيم في حلية الأولياء (٤/ ١٨٩)، والشهاب القضاعي في مسنده (١/ ٢٢٩) رقم ٣٥٤، وانظر السلسلة الصحيحة (٣/ ٤٨) رقم ١٠٥٨.

(٢) صحيح البخاري (٧/ ٧) رقم ٥٠٩٠، صحيح مسلم (٢/ ١٠٨٦) رقم ٥٣ (١٤٦٦).

(٣) **حسن لغيره** أخرجه الترمذي في سننه (٢/ ٣٨٥) رقم ١٠٨٤، وابن ماجه (١/ ٦٣٢) رقم ١٩٦٧، والطبراني في المعجم الأوسط (١/ ١٤١) رقم ٤٤٦ وجماعة غيرهم من حديث أبي هريرة من طرق وفي الباب أحاديث أخرى عن أبي حاتم المزني وعائشة رضي الله عنهما.

(٤) حسن لغيره أخرجه أحمد في مسنده (٤٣/ ٢٦٤) رقم ٢٦١٩٥، وأبو داود في سننه (١/ ٦١) رقم ٢٣٦، وغيرهما من حديث عائشة وانظر السلسلة الصحيحة (٦/ ٨٦٠) رقم ٢٨٦٣.

الظَّالِمُونَ} [البقرة: ٢٢٩]، وفي جانب الحرام {تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلاَ تَقْرَبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ } [البقرة: ١٨٧].

وقوله تعالى {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ} [الأنفال: ٢٤].

وقوله ﷺ ((دَعُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ، إِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِسُؤَالِهِمْ وَاخْتِلاَفِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ، فَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَاجْتَنِبُوهُ، وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ)). (١)

والمقصود أن الأصل في المسلم أن يكون متديناً مستقيماً، يحرص على اختيار الموضع المناسب قبل وضع قدميه، يحرص على استبيان الحلال والحرام قبل الشروع في أي مسلك، يعرض ما يقوله وما يفعله على الشرع.

وعلى هذا ينبغي أن تقوم الأسرة في الزوج والزوجة، ومنها يكون هذا في أولادهما، وهنا الهدف الذي منه وفيه كل شيء، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر على المستوى العام والخاص.

ولذا قال النبي ﷺ " كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ، أَوْ يُنَصِّرَانِهِ، أَوْ يُمَجِّسَانِهِ، كَمَثَلِ البَهِيمَةِ تُنْتَجُ البَهِيمَةَ هَلْ تَرَى فِيهَا جَدْعَاءَ)). (٢)

والشاهد منه أن مناط التغيير في الأبوين، بقرينة قوله ﷺ " مُرُوا أَوْلَادَكُمْ بِالصَّلاَةِ وَهُمْ أَبْنَاءُ سَبْعِ سِنِينَ، وَاضْرِبُوهُمْ عَلَيْهَا، وَهُمْ أَبْنَاءُ عَشْرٍ وَفَرِّقُوا بَيْنَهُمْ فِي الْمَضَاجِعِ)). (٣)

---

(١) صحيح البخاري (٩/ ٩٤) رقم ٧٢٨٨، ومسلم مختصراً من حديث أبي هريرة.

(٢) صحيح البخاري (٢/ ١٠٠) (١٣٨٥)، صحيح مسلم (٤/ ٢٠٤٧) (٢٦٥٨) من حديث أبي هريرة.

(٣) **حديث حسن** أخرجه أبو داود (١/ ١٣٣) رقم ٤٩٥، وابن أبي شيبة في مصنفه (١/ ٣٤٧) رقم ٣٥٠١ وغيرهما من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص وأخرجه أبو داود في سننه (١/ ١٣٣) رقم ٤٩٤، وابن أبي شيبة في مصنفه (١/ ٣٤٧) رقم ٣٥٠٠ ومن طريقه الطبراني في المعجم الكبير (٧/ ١١٥) رقم ٦٥٤٨ من حديث سبرة بن معبد الجهني.

وفيه أن الصلاة رأس الأمر كله، لقوله تعالى {إِنَّ الصَّلاَةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ} [العنكبوت: ٤٥].

وعليه فعلموه الأخلاق الحسنة، والأمانة، والصدق، والعدل، والإحسان، والامر بالشيء الحسن، يلزمه النهي عن الشيء السيء.

والمقصود أن المحافظة على المسالك الحسنة التي أمر بها الله ورسوله ﷺ هي غاية المدنية والحرية على قاعدة قوله تعالى {وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ } [القصص: ٧٧]، فالمسلم يكون عزيزاً بدينه إذا أقامه ما استطاع إلى ذلك سبيلاً.

ويتفرع عن هذه قاعدة مهمة: " صلاح الآباء ينفع الأبناء "، وتقوى الأصول تنفع الفروع، والعكس، وعليه، فالعوامل المؤثرة في شخصية المسلم يمكن حصرها في خمسة عوامل أصلان وثلاثة توابع.

أما الأصلان فهما: الأسرة، وهي رأس الأمر كله، فهي أساس البناء والتكوين بين الصلاح والفساد.

فهذه أسرة طيبة متماسكة مترابطة، ثمرتها صالحة نافعة للمجتمع، والأمة، وهذه أسرة خبيثة رديئة مفككة مهلهلة ثمرتها طالحة مضرة للأمة وللمجتمع.

الأصل الثاني: المسجد، قال تعالى {إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاَةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ } [التوبة: ١٨]، فالمسجد دعامة قوية في بناء المجتمع الإسلامي، وقاعدة راسخة في التبليغ والدعوة إلى الطريق المستقيم طريق الله ورسوله، ومنارة هداية لإيقاظ الغافلين وإرشاد التائهين، وتقويم اعوجاجهم.

وإذا كان الإسلام وكل إلى الأسرة مهمة تنشئة الأبناء على الإصلاح، فإنه أناط بالمسجد مسئولية المشاركة في البناء والتكوين الشخصي والأسري والاجتماعي، فنراه رغب في التردد عليه في الغدوة

والروحة ففي الصحيحين من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال ((مَنْ غَدَا إِلَى الْمَسْجِدِ، أَوْ رَاحَ، أَعَدَّ اللهُ لَهُ فِي الْجَنَّةِ نُزُلًا، كُلَّمَا غَدَا، أَوْ رَاحَ)). (١) يأتيه للصلاة العبادة والعلم.

ونراه لم يحرم المرأة من ذلك لأنها ركن في البناء والتكوين ففي الصحيحين من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال ((لَا تَمْنَعُوا إِمَاءَ اللهِ مَسَاجِدَ اللهِ)). (٢)، وفي لفظ ((إِذَا اسْتَأْذَنَتِ امْرَأَةُ أَحَدِكُمْ إِلَى المَسْجِدِ فَلاَ يَمْنَعْهَا)). (٣)

لكن هذا بشروط ١- أن تكون متحجبة ٢- أن لا تكون متطيبة ولا متزينة بزينة ٣- أن لا تختلط بالرجال ٤- أن تكون آمنة في طريقها إلى المسجد.

ونراه أباح للأطفال الدخول إلى المسجد لاسيما برفقة والديه، وهما على قسمين:

قسم يدرك ويعقل ما يقال له، وشاهده في قوله ﷺ " مُرُوا أَوْلَادَكُمْ بِالصَّلاَةِ وَهُمْ أَبْنَاءُ سَبْعِ سِنِينَ، وَاضْرِبُوهُمْ عَلَيْهَا، وَهُمْ أَبْنَاءُ عَشْرٍ وَفَرِّقُوا بَيْنَهُمْ فِي الْمَضَاجِعِ)). (٤)

وهذا ظاهره أنه لا يكتفى بالبيت بل يأخذه إلى المسجد ويروضه.

وقسم لا يعقل ولا يدرك ما يقال له، وهذا لا يأتي إلا اضرارا أو حينا بعد حين، وفي رفقة أبيه أوأمه غالبا وهذا يُرحم ولا يعنف.

وأما التوابع: فثلاثة ١- المدرسة وخلاصته من المدرس؟ ومن المدرسة (المعلمة)؟ ومن أين؟ الجواب من تلك الأسرة، إن خيراً فخير وإن شراً فشر.

الإعلام: وخلاصته: من الإعلامي؟ ومن الصحفي؟ ومن أين؟ الجواب من تلك الأسرة.

---

(١) صحيح مسلم (١/ ٤٦٣) رقم ٢٨٥(٦٦٩) واللفظ له، صحيح البخاري (١/ ١٣٣) رقم ٦٦٢.

(٢) صحيح مسلم (١/ ٣٢٧) رقم ١٣٦ (٤٤٢) واللفظ له، صحيح البخاري (٢/ ٦) رقم ٩٠٠.

(٣) صحيح البخاري (٧/ ٣٨) رقم ٥٢٣٨، صحيح مسلم (١/ ٣٢٦) رقم ١٣٤(٤٤٢)

(٤) **حسن.** أخرجه أبو داود (٤٩٥)، وابن أبي شيبة في مصنفه (١/ ٣٤٧) رقم ٣٥٠١ وغيرهما من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص وأخرجه أبو داود في سننه (٤٩٤)، وابن أبي شيبة في مصنفه (١/ ٣٤٧) (٣٥٠٠) ومن طريقه الطبراني في المعجم الكبير (٧/ ١١٥) رقم ٦٥٤٨ من حديث سبرة بن معبد الجهني.

الشارع: وخلاصته: من الذي في الشوارع والمؤسسات العامة والخاصة؟ ومن أين؟ الجواب من تلك الأسرة.

ومن حيث بدأنا نرجع وحديث ابن عمر مرفوعاً ((كُلُّكُمْ رَاعٍ فَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، فَالأَمِيرُ الَّذِي عَلَى النَّاسِ رَاعٍ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْهُمْ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ عَلَى أَهْلِ بَيْتِهِ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْهُمْ، وَالمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ عَلَى بَيْتِ بَعْلِهَا وَوَلَدِهِ وَهِيَ مَسْئُولَةٌ عَنْهُمْ، وَالعَبْدُ رَاعٍ عَلَى مَالِ سَيِّدِهِ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْهُ، أَلاَ فَكُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ)). (١)

فهل الجيل القائم جيل القدوة، والقيادة؟ ومتى يكون؟ ومن المسئول؟

نسأل الله العفو والعافية، والهداية والتوفيق إلى ما يحبه ويرضاه، وأن يحفظنا وبلادنا من مكر الماكرين وكيد الكائدين، إنه عليم قدير وهو نعم المولى ونعم النصير

كتبه

صبري محمد عبد المجيد

---

(١) صحيح البخاري (٣/ ١٥٠) رقم ٢٥٥٤، صحيح مسلم (٣/ ١٤٥٩) رقم ٢٠ (١٨٢٩).

الإيمان بالقدر

تعريف القدر **حكم الإيمان بالقدر**
أركانه **ثمراته.**

مقدمة: إنّ الله عز وجل خلق الخلق بعمله وقدَّر لهم أقدارا، وضرب لهم آجالا، وَلَمْ يَخْفَ عَلَيْهِ شَيْءٌ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَهُمْ، وَعَلِمَ مَا هُمْ عَامِلُونَ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَهُمْ، وأمرهم بطاعته ونهاهم عن معصيته، وَكُلُّ شَيْءٍ يَجْرِي بِتَقْدِيرِهِ وَمَشِيئَتِهِ، وَمَشِيئَتُهُ تَنْفُذُ، لَا مَشِيئَةَ لِلْعِبَادِ إِلَّا مَا شَاءَ لَهُمْ، فَمَا شَاءَ لَهُمْ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لم يكن، يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَيَعْصِمُ وَيُعَافِي فَضْلاً وَيُضِلُّ من يشاء ويخذل ويبتلي عدلا، وَكُلُّهُمْ يَتَقَلَّبُونَ فِي مَشِيئَتِهِ بَيْنَ فَضْلِهِ وَعَدْلِهِ، وهو متعال عن الأضداد والأنداد لَا رَادَّ لِقَضَائِهِ وَلَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَلَا غالب لأمره آمَنَّا بِذَلِكَ كُلِّهِ وَأَيْقَنَّا أَنَّ كُلاًّ مِنْ عنده. (١)

وسُئِلَ الْإِمَامُ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ، عَنِ الْقَدَرِ فَأَنْشَأَ يَقُولُ:

مَا شِئْتَ كَانَ وَإِنْ لَمْ أشأْ. . . وَمَا شِئْتُ إِنْ لَمْ تَشَأْ لَمْ يَكُنْ
خَلَقْتَ الْعِبَادَ عَلَى مَا عَلِمْتَ. . . فَفِي الْعِلْمِ يَجْرِي الْفَتَى وَالْمُسِنْ
عَلَى ذَا مَنَنْتَ وَهَذَا خَذَلْتَ. . . وَهَذَا أَعَنْتَ وَذَا لَمْ تُعِنْ
فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَمِنْهُمْ سَعِيدٌ. . . وَمِنْهُمْ قَبِيحٌ وَمِنْهُمْ حَسَنْ(٢)

تعريف القدر:

هو تقدير الله تعالى الأشياء في القدم، وعلمه سبحانه أنها ستقع في أوقات معلومة عنده، وعلى صفات مخصوصة وكتابته سبحانه لذلك ومشيئته لها ووقوعها على حسب ما قدرها جلّ وعلا وخلقه لها. (١)

---

(١) متن الطحاوية بتعليق الألباني (ص: ٣٦)

(٢) الأسماء والصفات للبيهقي (١/ ٤٥٠)

بعض الأدلة على أن جميع الأمور تجري بقدر الله

فقد وردت أدلة في كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ، تدل على أن الأمور تجري بقدر الله تعالى، وأن الله تعالى علم الأشياء وقدرها في الأزل، وأنها ستقع على وفق ما قدرها. سبحانه وتعالى. قال تعالى{ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ} [القمر: ٤٩]

وقال تعالى{وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا } [الفرقان: ٢]

وقال تعالى{سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا} [الأحزاب: ٣٨]

وعَنْ طَاوُسٍ رحمه الله، أَنَّهُ قَالَ: أَدْرَكْتُ نَاسًا مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، يَقُولُونَ كُلُّ شَيْءٍ بِقَدَرٍ، قَالَ: وَسَمِعْتُ عَبْدَ اللهِ بْنَ عُمَرَ يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: ((كُلُّ شَيْءٍ بِقَدَرٍ، حَتَّى الْعَجْزِ وَالْكَيْسِ)). (٢)

والْمُرَادُ مِنَ الْعَجْزِ عَدَمُ الْقُدْرَةِ، أَوْ تَرْكُ مَا يَجِبُ فِعْلُهُ، وَالتَّسْوِيفُ بِهِ، وَالتَّأْخِيرُ عَنْ وَقْتِهِ، أَوِ الْعَجْزُ عَنِ الطَّاعَةِ، وَالْكَيْسُ ضِدُّ الْعَجْزِ، وَهُوَ النَّشَاطُ، وَالْحِذْقُ بِالْأُمُورِ، وَمَعْنَاهُ أَنَّ الْعَاجِزَ قَدْ قُدِّرَ عَجْزُهُ، وَالْكَيِّسُ قَدْ قُدِّرَ كَيْسُهُ، فكُلّ شَيْءٍ لَا يَقَعُ فِي الْوُجُودِ إِلَّا وَقَدْ سَبَقَ بِهِ عِلْمُ اللَّهِ وَمَشِيئَتُهُ. (٣)

قال النووي رحمه الله: تَظَاهَرَتِ الْأَدِلَّةُ الْقَطْعِيَّاتُ مِنَ الْكِتَابِ وِالسُّنَّةِ وَإِجْمَاعِ الصَّحَابَةِ وَأَهْلِ الْحَلِّ وَالْعَقْدِ مِنَ السَّلَفِ وَالْخَلَفِ عَلَى إِثْبَاتِ قَدَرِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى. (٤)

قال الحافظ رحمه الله: وَمَذْهَبُ السَّلَفِ قَاطِبَةً أَنَّ الْأُمُورَ كُلَّهَا بِتَقْدِيرِ اللَّهِ تَعَالَى كَمَا قَالَ تَعَالَى ((وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ الا بِقدر مَعْلُوم)). (٥)

---

(١) شفاء العليل لابن القيم صـ ٢٩، القضاء والقدر للمحمود صـ ٤٠.

(٢) رواه مسلم (٢٦٥٥)

(٣) شرح النووي على مسلم (١٦/ ٢٠٥)

(٤) شرح النووي على مسلم (١/ ١٥٥)

(٥) فتح الباري لابن حجر (١١/ ٤٧٨)

حكم الإيمان بالقضاء والقدر

الإيمان بالقدر من أصول الإيمان التي لا يتم إيمان العبد إلا بها، فقد جاء في حديث جبريل: المشهور، لما سُئِل رَسُولُ اللهِ ﷺ عَنِ الْإِيمَانِ قال: ((أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ)). (١) فالإيمان بالقدر ركن من أركان الإيمان الستة.

وعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رضي الله عنهما، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ((لَا يُؤْمِنُ عَبْدٌ حَتَّى يُؤْمِنَ بِالقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ، وحَتَّى يَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَهُ، وَأَنَّ مَا أَخْطَأَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَهُ)). (٢)

وعَنْ عَلِيّ بن أبي طالب رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ((لَا يُؤْمِنُ عَبْدٌ حَتَّى يُؤْمِنَ بِأَرْبَعٍ: يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ بَعَثَنِي بِالحَقِّ، وَيُؤْمِنُ بِالمَوْتِ، وَبِالبَعْثِ بَعْدَ المَوْتِ، وَيُؤْمِنُ بِالقَدَرِ)). (٣)

قال الإمام عبد الغني المقدسي رحمه الله: أجمع أئمة السلف من أهل الإسلام على الإيمان بالقدر خيره وشره، حلوه ومره، قليله وكثيره، بقضاء الله وقدره، لا يكون شيء إلا بإرادته، ولا يجري خير وشر إلا بمشيئته. (٤)

مراتب الإيمان بالقدر:

أولاً: مرتبة العلم:

والمراد بالعلم: هو اعتقاد أن الله عز وجل علم أعمال العباد دقيقها وجليلها كما علم مصائرهم إلى الجنة أو إلى النار قبل وجودهم. والأدلة على ذلك كثيرة منها قَوله تَعالَى: {هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ} [الْحَشْرِ: ٢٢]

---

(١) رواه مسلم (٨)

(٢) رواه الترمذي (٢١٤٤) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢/ ١٢٥٨)

(٣) رواه الترمذي (٢١٤٥) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢/ ١٢٥٨)

(٤) الاقتصاد في الاعتقاد للمقدسي (ص: ١٥١)

وَقَالَ تَعَالَى: {لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا} [الطَّلاَقِ: ١٢]

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: سُئِلَ النَّبِيُّ ﷺ، عَنْ أَوْلاَدِ المُشْرِكِينَ، فَقَالَ: ((اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا عَامِلِينَ)). (١)

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ((مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ، وَيُنَصِّرَانِهِ، كَمَا تُنْتِجُونَ البَهِيمَةَ، هَلْ تَجِدُونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ، حَتَّى تَكُونُوا أَنْتُمْ تَجْدَعُونَهَا؟)) قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ: أَفَرَأَيْتَ مَنْ يَمُوتُ وَهُوَ صَغِيرٌ؟ قَالَ: ((اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا عَامِلِينَ)). (٢)

المرتبة الثانية: الكتابة:

والمراد بها: اعتقاد أن الله عز وجل قد كتب جميع أعمال العباد صغيرها وكبيرها، دقيقها وجليلها

ومن الأدلة على هذه المرتبة، قوله عز وجل: {أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ} [الحج ٧٠] **وقوله عز وجل:** {وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ} [يس ١٢]

وقال عز وجل: {عالِمِ الْغَيْبِ لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الْأَرْضِ وَلا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ} [سبأ ٣]

وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رضي الله عنهما، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ، يَقُولُ: ((كَتَبَ اللهُ مَقَادِيرَ الْخَلاَئِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، قَالَ: وَعَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ)). (٣)

---

(١) رواه البخاري (٦٥٩٧)

(٢) رواه البخاري (٦٥٩٩)

(٣) رواه مسلم (٢٦٥٣).

وعَنْ عَلِيّ بن أبي طالب رضي الله عنه، قَالَ: قال رَسُولُ اللهِ ﷺ: ((مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ، مَا مِنْ نَفْسٍ مَنْفُوسَةٍ، إِلَّا وَقَدْ كَتَبَ اللهُ مَكَانَهَا مِنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، وَإِلَّا وَقَدْ كُتِبَتْ شَقِيَّةً أَوْ سَعِيدَةً)) قَالَ فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ أَفَلاَ نَمْكُثُ عَلَى كِتَابِنَا، وَنَدَعُ الْعَمَلَ؟ فَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ، فَسَيَصِيرُ إِلَى عَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ، فَسَيَصِيرُ إِلَى عَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ. فَقَالَ: ((اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ، أَمَّا أَهْلُ السَّعَادَةِ فَيُيَسَّرُونَ لِعَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ، وَأَمَّا أَهْلُ الشَّقَاوَةِ فَيُيَسَّرُونَ لِعَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ))، ثُمَّ قَرَأَ: {فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى، وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى، فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى، وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى، وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى}. (١)

وعن عُبَادَة بْن الصَّامِتِ رضي الله عنه، قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، يَقُولُ: ((إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمَ، فَقَالَ لَهُ: اكْتُبْ قَالَ: رَبِّ وَمَاذَا أَكْتُبُ؟ قَالَ: اكْتُبْ مَقَادِيرَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ)). (٢)

المرتبة الثالثة: المشيئة:

والمراد بالمشيئة؛ الإيمان بمشيئة الله النافذة في كل شيء، فلا يقع في هذا الكون شيء إلا بمشيئته، ولم يقع إلا لأن الله قد شاء وقوعه، وما لم يقع إنما لم يقع لأن الله لم يشأ وقوعه، وهذا شامل لكل شيء مما هو طاعة ومعصية وهداية وضلال وخير وشر، والأدلة على إثبات هذه المرتبة كثيرة، منها: قوله عز وجل: {وما تشاؤون إلا أن يشاء الله} [التكوير ٢٩] **وقوله عز وجل**: {مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} [الأنعام ٣٩] **وقوله عز وجل**: {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً} [يونس ٩٩]

وعن عَبْد اللهِ بْن عَمْرٍو رضي الله عنهما، أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ ﷺ، يَقُولُ: ((إِنَّ قُلُوبَ بَنِي آدَمَ كُلَّهَا بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ، كَقَلْبٍ وَاحِدٍ، يُصَرِّفُهُ حَيْثُ يَشَاءُ)) ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: ((اللهُمَّ مُصَرِّفَ الْقُلُوبِ صَرِّفْ قُلُوبَنَا عَلَى طَاعَتِكَ)). (٣)

---

(١) رواه مسلم (٢٦٤٧)

(٢) رواه أبو داود (٤٧٠٠) وصححه الألباني في صحيح الجامع (١/ ٤٠٥)

(٣) رواه مسلم (٢٦٥٤)

فهذه النصوص أثبتت أن كل شيء إنما هو بمشيئة الله عز وجل.

قال ابن القيم رحمه الله: أساس كل خير أَن تعلم أَن مَا شَاءَ الله كَانَ وَمَا لم يَشَأْ لم يكن فتيقن حِينَئِذٍ أَن الْحَسَنَات من نعمه فتشكره عَلَيْهَا وتتضرّع إِلَيْهِ أَن لَا يقطعهَا عَنْك وَأَن السَّيِّئَات من خذلانه وعقوبته فتبتهل إِلَيْهِ أَن يحول بَيْنك وَبَينهَا وَلَا يكلك فِي فعل الْحَسَنَات وَترك السَّيِّئَات إِلَى نَفسك وَقد أجمع العارفون على أَن كل خير فأصله بِتَوْفِيق الله للْعَبد وكل شَرّ فأصله خذلانه لعَبْدِهِ وَأَجْمعُوا أَن التَّوْفِيق أَن لَا يكلك الله نفسك وان الخذلان أَن يخلي بَيْنك وَبَين نَفسك. (١)

المرتبة الرابعة: خلق الله سبحانه وتعالى الأعمال وتكوينه وإيجاده لها:

وهو الإيمان بأن الله سبحانه وتعالى خالق كل شيء، فهو خالق كل عامل وعمله وكل متحرك وحركته، وكل ساكن وسكونه، وما من ذرة في السماوات ولا في الأرض إلا والله سبحانه وتعالى خالقها وخالق حركتها وسكونها سبحانه لا خالق غيره ولا رب سواه.

والأدلة على ذلك كثيرة من الكتاب، والسنة. فمن الكتاب: **قوله تعالى:** { اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ} [الزمر: ٦٢]

وقوله تعالى: {وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ } [الصافات: ٩٦]. **وقوله تعالى:** {وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا} [الفرقان: ٢].

ومن السنة: عَنْ حُذَيْفَةَ رضي الله عنه، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: ((إِنَّ اللَّهَ يَصْنَعُ كُلَّ صَانِعٍ وَصَنْعَتَهُ)) وَتَلاَ بَعْضُهُمْ عِنْدَ ذَلِكَ: {وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ} [الصافات: ٩٦]. (٢) قال البخاري رحمه الله: فَأَخْبَرَ أَنَّ الصِّنَاعَاتِ وَأَهْلَهَا مَخْلُوقَةٌ. (٣)

ثمرات الإيمان بالقدر:

١ـ الإيمان بالقدر طريق الخلاص من الشرك:

---

(١) الفوائد لابن القيم (ص: ٩٧)

(٢) رواه البخاري في خلق أفعال العباد (ص: ٤٦)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١/ ٣٦٦).

(٣) خلق أفعال العباد للبخاري (ص: ٤٦).

فالمجوس زعموا أن النور خالق الخير، والظلمة خالقة للشر، والقدرية قالوا: إن الله لم يخلق أفعال العباد، فهم أثبتوا خالقين مع الله جل وعلا وهذا شرك، والإيمان بالقدر على الوجه الصحيح توحيد الله.

٢ـ سبب في استقامة العبد واعتداله في حال السراء والضراء:

الإيمان بالقدر يجعل الإنسان يمضي في حياته على منهج سواء، لا تبطره النعمة، ولا تيأسه المصيبة، فهو يعلم أن كل ما أصابه من نعم وحسنات من الله، فيشكر ربه على ذلك، وإذا أصابته ضراء أو بلاء علم أن هذا بتقدير الله ابتلاء منه، فلا يجزع ولا ييأس، بل يحتسب ويصبر، فيكسب هذا الإيمان في قلب العبد المؤمن الرضا والطمأنينة.

عَنْ صُهَيْبٍ الرومي رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: ((عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَلكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ، صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ)). (١)

٣ـ المؤمن بالقدر دائماً على حذر لا يأمن مكر الله

المؤمنون بالقدر دائماً على حذر لأنهم لا يعلمون ما سبق لهم في علم الله من السعادة والشقاوة، ولا يدرون بما يُختم لهم. **قال السري السقطي** رحمه الله: قُلوب الأبرارِ معلّقةٌ بالخَواتِيم يقولون: بماذا يُختَم لنَا؟ وقلوب المقرَّبين معلّقةٌ بالسوابق يقولون: ماذا سبَق لنا؟. (٢)

وفي حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، أن رَسُول اللَّهِ ﷺ، قال: ((فَوَالَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ، فَيَدْخُلُهَا، وَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ، حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَيَدْخُلُهَا)). (٣)

---

(١) رواه مسلم (٢٩٩٩).

(٢) صفة الصفوة (١/ ٤٩٩)

(٣) رواه البخاري (٣٢٠٨) ومسلم (٢٦٤٣)

فالمؤمن يحذر دائماً أن يأتيه ما يضله كما يخشى أن يختم له بخاتمة سيئة، وهذا لا يدفعه إلى التكاسل والخمول، بل يدفعه إلى المجاهدة الدائبة للاستقامة، والإكثار من الصالحات، ومجانبة المعاصي والموبقات، فيبقى قلب العبد معلقاً بخالقه، يدعوه ويرجوه ويستعينه، ويسأله الثبات على الحق، كما يسأله الرشد والسداد.

٤ـ مواجهة الصعاب والأخطار بقلب ثابت:

إذا آمن العبد بأنَّ كل ما يصيبه مكتوب، وآمن أن الأرزاق والآجال بيد الله، فإنه يقتحم الصعاب والأهوال بقلب ثابت وهامة مرفوعة، لأنه يؤمن **بقول الله تعالى** { قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ} [التوبة: **٥١**]

ويؤمن بقول النبي ﷺ، لابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما، ((وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الأَقْلاَمُ وَجَفَّتْ الصُّحُفُ)). (١)

وعن زَيْد بْن ثابتٍ رضي الله عنه، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، يَقُولُ: ((اعْلَم أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ، وَأَنَّ مَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ)). (٢)

ـ الإيمان بالقدر يقضي على كثير من الأمراض التي تفتك بالمجتمعات، وتزرع الأحقاد بين الناس

وذلك مثل رذيلة الحسد، فالمؤمن لا يحسد الناس على ما آتاهم الله من فضله؛ لإيمان منه بأن الله هو الذي رزقهم وقدر لهم ذلك، فأعطى من شاء ومنع من شاء ابتلاءً وامتحانًا منه –عز وجل– وأنه حين يحسد غيره، إنما يعترض على القدر.

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رضي الله عنهما، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ، قَالَ: ((قَدْ أَفْلَحَ مَنْ أَسْلَمَ، وَرُزِقَ كَفَافًا، وَقَنَّعَهُ اللهُ بِمَا آتَاهُ)). (٣)

ـ الجد والحزم في الأمور، والحرص على كل خير ديني أو دنيوي

---

(١) رواه الترمذي (٢٥١٦) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢/ ١٣١٨)

(٢) رواه أبو داود (٤٦٩٩) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢/ ٩٣٠)

(٣) رواه مسلم (١٠٥٤)

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: ((الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ، خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللهِ وَلَا تَعْجَزْ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ، فَلاَ تَقُلْ لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ قَدَرُ اللهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ، فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ)). (١)

ـ سبب في الهداية القلبية واليقين الصادق

كما قال تعالى: {مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} [التغابن: ١١]

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: أَيْ مَنْ أَصَابَتْهُ مُصِيبَةٌ فَعَلِمَ أَنَّهَا بِقَضَاءِ اللَّهِ وَقَدَرِهِ، فَصَبَرَ وَاحْتَسَبَ وَاسْتَسْلَمَ لِقَضَاءِ اللَّهِ، هَدَى اللَّهُ قَلْبَهُ، وعَوَّضه عَمَّا فَاتَهُ مِنَ الدُّنْيَا هُدى فِي قَلْبِهِ، وَيَقِينًا صَادِقًا، وَقَدْ يُخْلِفُ عَلَيْهِ مَا كَانَ أَخَذَ مِنْهُ، أَوْ خَيْرًا مِنْهُ. (٢)

ـ سبب في علو الهمة، وعدم الرضا بالدون، وعدم الرضا بالواقع الأليم:

فالْمُسْلِمُ مَأْمُورٌ أَنْ يَفْعَلَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ وَيَدْفَعُ مَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ وَإِنْ كَانَتْ أَسْبَابُهُ قَدْ قُدِّرَتْ فَيَدْفَعُ قَدَرَ اللَّهِ بِقَدَرِ اللَّهِ، فعن عَبْد اللَّهِ بْنِ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ، عَنْ أَبِيهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّهُ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَرَأَيْتَ دَوَاءً نَتَدَاوَى بِهِ ورُقىً نَسْتَرْقِي بِهَا وَأَشْيَاءَ نَفْعَلُهَا هَلْ تَرُدُّ مِنْ قَدَرِ اللَّهِ؟ قَالَ: ((يَا كَعْبُ بل هي من قدر الله)). (٣)

فَهَذَا شَأْنُ الْعَارِفِينَ وَشَأْنُ الْأَقْدَارِ، لَا الِاسْتِسْلاَمُ لَهَا، وَتَرْكُ الْحَرَكَةِ وَالْحِيلَةِ، فَإِنَّهُ عَجْزٌ، وَاللَّهُ تَعَالَى يَلُومُ عَلَى الْعَجْزِ، فَإِذَا غَلَبَ الْعَبْدُ، وَضَاقَتْ بِهِ الْحِيَلُ، وَلَمْ يَبْقَ لَهُ مَجَالٌ، فَهُنَالِكَ الِاسْتِسْلاَمُ لِلْقَدَرِ. (٤)

---

(١) رواه مسلم (٢٦٦٤)

(٢) تفسير ابن كثير (٨/ ١٣٧)

(٣) رواه ابن حبان (٦٠٦٨) وحسنه الألباني لغيره في تخريج مشكلة الفقر (ص: ١٣)

(٤) مدارج السالكين (١/ ٢١٨)

أفراح المسلمين بين المشروع والممنوع

نعمة الزواج **تيسير الزواج**
مخالفات الأفراح **ما هو العلاج.**

أولا: مقدمة:

اعتاد جماعة من الناس في زماننا أن يقيموا أفراح الزواج بعيدا عن شرع الله، يقيمونها حسب العادات التي تعارف عليها الناس اتباعا لأهوائهم، وصدودا عن شرع الله، وإن الواجب على المسلم أن يسأل عن حكم دينه، ولا يُقْدِم على شيء إلا بعد أن يعرف موقف الشرع منه، فإن كان مما يرضي الله عز وجل أقدم عليه، وإن كان مما يغضب الله ابتعد عنه.

ثانيا: نعمة الزواج:

الزواج نعمة أنعم الله بها على عباده، وآية من آياته سبحانه وتعالى امتن الله تعالى بها على عباده قال سبحانه: ((وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)) [الروم: ٢١] قال السَّعدي رَحِمَهُ اللَّهُ: فحصل بالزوجة الاستمتاع واللذة والمنفعة بوجود الأولاد وتربيتهم، والسكون إليها، فلا تجد بين أحد في الغالب مثل ما بين الزوجين من المودة والرحمة(١).

والزواج من سنن المرسلين، وهدي الصالحين، قال الله: ((وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ)) [الرعد: ٣٨].

وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: ((الدُّنْيَا مَتَاعٌ، وَخَيْرُ مَتَاعِ الدُّنْيَا الْمَرْأَةُ الصَّالِحَةُ))(٢).

---

(١) تفسير السعدي (ص: ٦٣٩)

(٢) أخرجه مسلم (٣٦٣٤).

وقد حث عليه ربنا جل وعلا في كتابه بقوله: ((فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلاَثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلَّا تَعُولُوا)) [النساء: ٣]. كما رغب فيه سيد المرسلين بفعله، وحث عليه بقوله ﷺ ففي حديث أنس بن مالك ﷺ قال: جَاءَ ثَلاَثَةُ رَهْطٍ إِلَى بُيُوتِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ يَسْأَلُونَ عَنْ عِبَادَةِ النَّبِيِّ ﷺ فَلَمَّا أُخْبِرُوا كَأَنَّهُمْ تَقَالُّوهَا، فَقَالُوا: وَأَيْنَ نَحْنُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ؟ قَدْ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ، قَالَ أَحَدُهُمْ: أَمَّا أَنَا فَإِنِّي أُصَلِّي اللَّيْلَ أَبَدًا، وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَصُومُ الدَّهْرَ وَلاَ أُفْطِرُ، وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَعْتَزِلُ النِّسَاءَ فَلاَ أَتَزَوَّجُ أَبَدًا، فَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَيْهِمْ، فَقَالَ: ((أَنْتُمُ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا، أَمَا وَاللَّهِ إِنِّي لَأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ وَأَتْقَاكُمْ لَهُ، لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي))(١).

ولهذا وجه النبي ﷺ شباب الأمة إلى المبادرة بالزواج حيثما يجد القدرة على تحمل المسؤولية، والقيام بشؤون الحياة الزوجية، ففي الحديث عن عَبْدِ اللَّهِ بن مسعود ﷺ قَالَ: كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: ((مَنِ اسْتَطَاعَ البَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ، فَإِنَّهُ أَغَضُّ لِلْبَصَرِ، وَأَحْصَنُ لِلْفَرْجِ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ، فَإِنَّهُ لَهُ وِجَاءٌ))(٢).

ثالثا: تيسير الزواج مطلب شرعي:

ولأجل ذلك كان لزاما علينا أن يكون النكاح مبناه علي اليسر قال تعالي: ((يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ)) [البقرة ١٩٩].

وَعَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: ((إِنَّ أَعْظَمَ النِّكَاحِ بَرَكَةً أَيْسَرُهُ مُؤْنة))(٣).

---

(١) أخرجه البخاري (٥٠٦٣)، واللفظ له، ومسلم (٥/١٤٠١).

(٢) أخرجه البخاري (١٩٠٥).

(٣) أخرجه أحمد (٢٥١٦٧).

وَعَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ ﷺ قَالَ: جَاءَتْ امْرَأَةٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فقَالَ: ((مَنْ يَتَزَوَّجُهَا؟)) فَقَالَ رَجُلٌ: أَنَا، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: ((أَعْطِهَا وَلَوْ خَاتمًا مِنْ حَدِيدٍ))، فَقَالَ: لَيْسَ مَعِي، قَالَ: ((قَدْ زَوَّجْتُكَهَا عَلَى مَا مَعَكَ مِنَ الْقُرْآنِ))(١).

قال ابن عبد البر رَحِمَهُ اللَّهُ: وَفِي هَذَا الْحَدِيثِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ تَعْلِيمَ الْقُرْآنِ جَائِزٌ أَنْ يَكُونَ مَهْرًا(٢).

قَالَ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ ﷺ: لَا تُغْلُوا صُدُقَ النِّسَاءِ فَإِنَّهَا لَوْ كَانَتْ مَكْرُمَةً فِي الدُّنْيَا أَوْ تَقْوَى فِي الْآخِرَةِ كَانَ أَوْلَاكُمْ بِهَا النَّبِيُّ ﷺ(٣).

الزواج في الإسلام من أيسر الأمور، وكان السلف الصالح يتزوجون علي القرآن، وعلي الشيء اليسير، ولهذا فشت البركة في حياتهم.

صور للتيسير في العهد النبوي: هذه أم سُلَيم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا جعلت مهرها الإسلام كما في الحديث عَنْ أَنَس بن مالك ﷺ قَالَ: خَطَبَ أَبُو طَلْحَةَ أُمَّ سُلَيْمٍ، فَقَالَتْ: وَاللهِ مَا مِثْلُكَ يَا أَبَا طَلْحَةَ يُرَدُّ، وَلَكِنَّكَ رَجُلٌ كَافِرٌ، وَأَنَا امْرَأَةٌ مُسْلِمَةٌ، وَلَا يَحِلُّ لِي أَنْ أَتَزَوَّجَكَ، فَإِنْ تُسْلِمْ فَذَاكَ مَهْرِي، وَمَا أَسْأَلُكَ غَيْرَهُ، فَأَسْلَمَ فَكَانَ ذَلِكَ مَهْرَهَا. قَالَ ثَابِتٌ – هو البناني الراوي عن أنس-: فَمَا سَمِعْتُ بِامْرَأَةٍ قَطُّ كَانَتْ أَكْرَمَ مَهْرًا مِنْ أُمِّ سُلَيْمٍ الْإِسْلَامَ فَدَخَلَ بِهَا فَوَلَدَتْ لَهُ(٤).

قال الله تعالى: ((وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ)) [النور: ٣٢].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ((إِذَا خَطَبَ إِلَيْكُمْ مَنْ تَرْضَوْنَ دِينَهُ وَخُلُقَهُ فَزَوِّجُوهُ، إِلَّا تَفْعَلُوا تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ، وَفَسَادٌ عَرِيضٌ))(٥).

---

(١) أخرجه البخاري (٥٠٢٩).

(٢) الاستذكار (٥/ ٤١٤).

(٣) أخرجه النسائي (٣٣٤٩) وصححه الألباني في مشكاة المصابيح (٣٢٠٤).

(٤) أخرجه: النسائي (٣٣٤١)، وصححه الألباني في صحيح سنن النسائي (٣٣٤١).

(٥) أخرجه: الترمذي (١٠٨٤)، وحسنه الألباني في مشكاة المصابيح (٣٠٩٠).

ومن صور التيسير أيضا: حديث أَنَسِ بن مَالِكٍ ﷺ قَالَ: خَطَبَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى جُلَيْبِيبٍ امْرَأَةً مِنَ الْأَنْصَارِ إِلَى أَبِيهَا، فَقَالَ: حَتَّى أَسْتَأْمِرَ أُمَّهَا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: ((فَنَعَمْ إِذًا)) قَالَ: فَانْطَلَقَ الرَّجُلُ إِلَى امْرَأَتِهِ فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهَا، فَقَالَتْ: لَاهَا اللهُ[1] إِذًا، مَا وَجَدَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَّا جُلَيْبِيبًا وَقَدْ مَنَعْنَاهَا مِنْ فُلَانٍ وَفُلَانٍ؟ قَالَ: وَالْجَارِيَةُ فِي سِتْرِهَا تَسْتَمِعُ. قَالَ: فَانْطَلَقَ الرَّجُلُ يُرِيدُ أَنْ يُخْبِرَ النَّبِيَّ ﷺ بِذَلِكَ، فَقَالَتِ الْجَارِيَةُ: أَتُرِيدُونَ أَنْ تَرُدُّوا عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ أَمْرَهُ؟ إِنْ كَانَ قَدْ رَضِيَهُ لَكُمْ، فَأَنْكِحُوهُ قَالَ: فَكَأَنَّهَا جَلَّتْ عَنْ أَبَوَيْهَا، وَقَالَا: صَدَقْتِ. فَذَهَبَ أَبُوهَا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: إِنْ كُنْتَ قَدْ رَضِيتَهُ فَقَدْ رَضِينَاهُ. قَالَ: ((فَإِنِّي قَدْ رَضِيتُهُ)). فَزَوَّجَهَا، ثُمَّ فُزِّعَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ، فَرَكِبَ جُلَيْبِيبٌ فَوَجَدُوهُ قَدْ قُتِلَ، وَحَوْلَهُ نَاسٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَدْ قَتَلَهُمْ، قَالَ أَنَسٌ: فَلَقَدْ رَأَيْتُهَا وَإِنَّهَا لَمِنْ أَنْفَقِ ثَيِّبٍ فِي الْمَدِينَةِ[2].

وَحَدَّثَ إِسْحَاقُ بْنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ أَبِي طَلْحَةَ ثَابِتًا -الْبُنَانِيّ- قَالَ: هَلْ تَعْلَمْ مَا دَعَا لَهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ؟ قَالَ: ((اللهُمَّ صُبَّ عَلَيْهَا الْخَيْرَ صَبًّا، وَلَا تَجْعَلْ عَيْشَهَا كَدًّا كَدًّا[3]). قَالَ فَمَا كَانَ فِي الْأَنْصَارِ أَيِّمٌ أَنْفَقَ مِنْهَا[4].

هذا هو الفهم الحقيقي للامتثال لكلام النبي ﷺ ولو كان على النصيحة لا على الإلزام والوجوب، استجابت لأمر رسول الله ﷺ، لعلمها أنه ﷺ لا يشير إلا بخير وما فيه النفع وإن كنا نرى خلاف ذلك.

خامسا: من مخالفات الأفراح:

١- قراءة الفاتحة بقصد الخِطْبَة فإنه لم يرد عن النبي ﷺ فعَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ((مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ فِيهِ، فَهُوَ رَدٌّ))[1].

---

(١) المعنى: لا والله.

(٢) أخرجه: أحمد (١٢٣٩٣) وقال محققوه: إسناده صحيح على شرط الشيخين. وللحديث روايات غيرها.

(٣) الكَدُّ: الشدة في العمل، وطلب الكسب. العين للخليل بن أحمد (٥/٢٧٣).

(٤) أخرجه: أحمد (١٩٧٨٤) وقال محققوه: إسناده صحيح على شرط مسلم.

٢- دبلة الخطوبة: فإن كانت ذهبا فهي محرمة على الرجال، لأنها من الذهب ولأن فيها تشبها بالكفار، ولما فيها من الوعيد الشديد عَنْ عَلِيِّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ ﷺ قَالَ: إِنَّ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ: أَخَذَ حَرِيرًا فَجَعَلَهُ فِي يَمِينِهِ، وَأَخَذَ ذَهَبًا فَجَعَلَهُ فِي شِمَالِهِ ثُمَّ قَالَ: ((إِنَّ هَذَيْنِ حَرَامٌ عَلَى ذُكُورِ أُمَّتِي))(٢).

ولقوله ﷺ: ((يَعْمِدُ أَحَدُهُمْ إِلَى جَمْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَيَجْعَلُهَا فِي يَدِهِ))(٣).

وعَنِ عَبدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ((مَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ))(٤).

فإن النصارى كان من عادتهم أن يضع العريس الخاتم على إبهام العروس اليسرى ويقول: باسم الأب، ثم ينقله على رأس السبابة ويقول: باسم الابن، ثم يضعه على الوسطى ويقول: باسم الروح القدوس وعندما يقول آمين يضعه أخيرا في البنصر(٥).

٣- أن يخطب الرجل على خطبة أخيه المسلم وهذا الفعل محرم إذا أجيب لخاطب الأول وعلم الثاني بذلك ولم يأذن للثاني، ولم يترك الخاطب الأول، عن عَبدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قَالَ: نَهَى النَّبِيُّ ﷺ أَنْ يَبِيعَ بَعْضُكُمْ عَلَى بَيْعِ بَعْضٍ، وَلاَ يَخْطُبَ الرَّجُلُ عَلَى خِطْبَةِ أَخِيهِ، حَتَّى يَتْرُكَ الخَاطِبُ قَبْلَهُ أَوْ يَأْذَنَ لَهُ الخَاطِبُ(٦).

٤- المغالاة في المهور: مما يؤدي إلى الفساد في المجتمع، كالعنوسة، وانتشار الفاحشة وغيرها، والمستطيع من الشباب على الاقتراض ينشغل بعد الزواج بسداد الدَّين ربما لسنوات مهملا حق الزوجة.

---

(١) أخرجه: البخاري (٢٦٩٧).

(٢) أبو داود (٤٠٥٧)، والنسائي (٥١٤٤)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود (٤٠٥٧).

(٣) أخرجه: ابن حبان (١٥) صححه الألباني في التعليقات الحسان على صحيح ابن حبان (١٥).

(٤) أخرجه: أبو داود (٤٠٣١)، وحسنه الألباني في مشكاة المصابيح (٤٣٤٧)

(٥) موسوعة خطب المنبر (ص: ٣٠٧).

(٦) أخرجه البخاري (٥١٤٢).

٥- الموسيقى والغناء: والنصوص من القرآن والسنة الدالة على تحريمهما عديدة، قال الله تعالى: ((وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ)) [لقمان: ٦، ٧] أكثر المفسرين على أن المراد بلهو الحديث الغناء.

والغناء من شهادة الزور، وعباد الرحمن لا يشهدون الزور قال تعالى: ((وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا)) [الفرقان: ٧٢]

وعن أبي مالك الأشعري ﷺ عن النبي ﷺ قال: ((لَيَكُونَنَّ مِنْ أُمَّتِي أَقْوَامٌ، يَسْتَحِلُّونَ الحِرَ وَالحَرِيرَ، وَالخَمْرَ وَالمَعَازِفَ))(١).

وعن سَهْلُ بْنُ سَعْدٍ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: ((سَيَكُونُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ خَسْفٌ وَقَذْفٌ وَمَسْخٌ)) قِيلَ: وَمَتَى ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: ((إِذَا ظَهَرَتِ الْمَعَازِفُ وَالْقَيْنَاتُ، وَاسْتُحِلَّتِ الْخَمْرُ))(٢).

٦- التكاليف الباهظة، والنفقات المذهلة، والعادات الاجتماعية السيئة، من اختلاط وتبرج وإظهار الزينة التي نهى الله تعالى، تقليدًا وتبعية، مفاخرة ومباهاة، إسرافًا وتبذيرًا،! قال الله: ((إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا)) [الإسراء: ٢٧].

قال السعدي رحمه الله: لأن الشيطان لا يدعو إلا إلى كل خصلة ذميمة فيدعو الإنسان إلى البخل والإمساك فإذا عصاه، دعاه إلى الإسراف والتبذير. والله تعالى إنما يأمر بأعدل الأمور وأقسطها ويمدح عليه، كما في قوله عن عباد الرحمن الأبرار ((وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا))(٣).

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: ((صِنْفَانِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ لَمْ أَرَهُمَا، قَوْمٌ مَعَهُمْ سِيَاطٌ كَأَذْنَابِ الْبَقَرِ يَضْرِبُونَ بِهَا النَّاسَ، وَنِسَاءٌ كَاسِيَاتٌ عَارِيَاتٌ مُمِيلاَتٌ مَائِلاَتٌ، رُءُوسُهُنَّ كَأَسْنِمَةِ

---

(١) أخرجه: البخاري (٥٥٩٠).

(٢) أخرجه: الطبراني في المعجم الكبير (٥٨١٠)، وصححه الألباني في الجامع الصغير (٣٦٦٥).

(٣) تفسير السعدي (ص: ٤٥٦).

الْبُخْتِ الْمَائِلَةِ، لَا يَدْخُلْنَ الْجَنَّةَ، وَلَا يَجِدْنَ رِيحَهَا، وَإِنَّ رِيحَهَا لَيُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ كَذَا وَكَذَا))[١].

وأخيرا: ما هو العلاج؟ يتمثل العلاج في:

١- العودة إلى هدي السلف في حياتهم كلها ومنها الأفراح، وأن نلزم طريق الجادة، وامتثال هدي النبي ﷺ حيث قال: ((وقَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُ إِنِ اعْتَصَمْتُمْ بِهِ، كِتَابُ اللهِ، وَأَنْتُمْ تُسْأَلُونَ عَنِّي، فَمَا أَنْتُمْ قَائِلُونَ؟)) قَالُوا: نَشْهَدُ أَنَّكَ قَدْ بَلَّغْتَ وَأَدَّيْتَ وَنَصَحْتَ، فَقَالَ: بِإِصْبَعِهِ السَّبَّابَةِ، يَرْفَعُهَا إِلَى السَّمَاءِ وَيَنْكُتُهَا إِلَى النَّاسِ ((اللهُمَّ، اشْهَدْ، اللهُمَّ، اشْهَدْ)) ثَلاَثَ مَرَّات[٢].

٢- الابتعاد عن المنكرات كلها، والخوف من عاقبة الذنب وخطره فقد هلكت أمم بسببه، قال تعالى: ((وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَابِيَةً)) [الحاقة: ٩، ١٠].

٣- أن نتعاون علي إزالة المنكر بالحسنى، قال رَسُولَ اللهِ ﷺ: ((مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الإِيمَانِ))[٣].

٤- أن نعلم أ ن نعمة المال لا تدوم، فلنستعمله في طاعة الله، فالمال ظِلٌّ زائل، وعارية مسترجعة. وقد قال رَسُولِ اللهِ ﷺ لعمرو بن العاص رضي الله عنه: ((يَا عَمْرُو، نِعْمًا بِالْمَالِ الصَّالِحُ لِلرَّجُلِ الصَّالِحِ))[٤].

٥- أن نعلم أننا سنبني بيتا، فلا بد أن يكون على طاعة الله ورسوله ﷺ حتي يبارك الله في البيت وأهله: ((وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا)) [الكهف: ٨٢].

---

(١) أخرجه مسلم (٢١٢٨).

(٢) أخرجه مسلم (١٢١٨).

(٣) أخرجه مسلم (٨٦).

(٤) أخرجه أحمد (١٧٧٦٣)، وصححه الألباني في الأدب المفرد (٢٢٦).

الأسواق أحكام وآداب

كمال الشريعة الإسلامية **آداب السوق.**
حال النبي ﷺ مع السوق وأهله **من منكرات الأسواق.**

أولا: تعريف السوق: موضع تُجلب إليه الأمتعة والسِّلع للبيع والابتياع[١].

ثانيا: كمال الشريعة الإسلامية:

إن شريعة الإسلام نظّمت شؤون الحياة كلِّها، فما من شأن من شؤون حياة الإنسان إلا وللشريعة فيه التعليمات الطيّبة والتوجيهات القيّمة؛ لتحوّل المجتمع المسلم في كل ميادين حياته لأن يكون مجتمعًا مرتبطًا بدينه، ومن ذلكم شأن الأسواق، بيعا وشراءً، فإن شريعة الإسلام جاءت بالضوابط الشرعية والآداب المستحبّة والتوجيهات النافعة لمن يأتوا الأسواق، ومن يشتغلون فيها، ومن مِهْنتُهم البيع والشراء فيها لأن الأسواق من الأماكن البغيضة لله تعالي كما في الحديث عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ، قَالَ: ((أَحَبُّ الْبِلاَدِ إِلَى اللهِ مَسَاجِدُهَا، وَأَبْغَضُ الْبِلاَدِ إِلَى اللهِ أَسْوَاقُهَا))[٢]، [٣].

---

(١) معجم اللغة العربية المعاصرة (٢/ ١١٣٨).

(٢) أخرجه مسلم (٢٨٨).

(٣) قال القاضي عياض في إكمال المعلم بفوائد مسلم (٢/ ٦٤٧) يوضح لم كانت الأسواق كذلك: لأنها مخصوصة بطلب الدنيا، ومخادعة العباد، والإعراض عن ذكر الله، ومظانِّ الأيمان الفاجرة.

وقال المناوي في التنوير شرح الجامع الصغير (١/ ٣٩١): وحبه تعالى للبقاع وبغضه لها حبه لأهلها والساكنين بها، وبغضه لهم ولمن يلازمها.

وقال الملا علي القاري في مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٢/ ٥٩١): وهذا بطريق الأغلبية، وإلا فقد يقصد المسجد بقصد نحو الغِيبة، وقد يدخل السوق لطلب الحلال، ولذا قيل: كن ممن يكون في السوق وقلبه في المسجد لا بالعكس، والجمع بين القلب والقالب في المسجد أكمل. انظر: شرح النووي على صحيح مسلم (٥/ ١٧١).

و للعرب في جاهليّتهم أسواق كعُكَاظ ومِجَنّة وذي المَجَاز، فلما جاء الإسلام تحرّجوا هل يقيمون تلك الأسواق كما كانوا في الجاهلية؟ فأنزل الله: ((لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ)) [البقرة: ١٩٨]، أي بالتجارة في الحج وغيره.

ولقد أثنى الله على رجال لم تكن الأسواق صادّة لهم عن ذكر الله، ولا مُلْهِية لهم عن طاعته، بل هم يزاولون البيع والشراء، ويؤمون الأسواق ويقيمونها، ولكنها لا تلهي قلوبهم عن ذكر الله، ولا تشغلهم الأسواق عن طاعة الله: ((فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ رِجَالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ)) [النور: ٣٦، ٣٧].

ليسوا ممن يؤثر على ربه دنيا ذات لَذَّات، ولا تجارة ومكاسب، مشغلة عنه وهذا يشمل كل تكسب يقصد به العوض فهؤلاء الرجال، وإن اتجروا، وباعوا، واشتروا، فإن ذلك، لا محذور فيه. لكنه لا تلهيهم تلك، بأن يقدموها ويؤثروها على ذكر الله[١].

ثالثا: آداب الأسواق في الإسلام:

١- مداومة ذكر الله، لأن السوق غفلة ولهو، والمسلم يذكر الله ليكون ذكره لله مصاحبًا لـه في أحواله كلها: ((فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)) [الجمعة: ١٠].

أي: اتركوا البيع، إذا نودي للصلاة، وامضوا إليها فإن ((ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ)) من اشتغالكم بالبيع، وتفويتكم الصلاة الفريضة، التي هي من آكد الفروض ((إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ)) أن ما عند الله خير وأبقى، وأن من آثر الدنيا على الدين، فقد خسر الخسارة الحقيقية[٢].

فليكن ذكر الله مصاحبًا لنا حتى في البيع والشراء، ولا تكن الدنيا مُلْهية عن طاعة ربنا.

---

(١) تفسير السعدي (ص: ٥٦٩).

(٢) تفسير السعدي (ص: ٨٦٣)

٢- إفشاء السلام، كان عبد الله بن عمر ﷺ يأتي السوق، فقال له أحد أصحابه: وما شأنك والسوق، لا تقف على السلع ولا تَسُوم؟! قال: آتي لأسَلّم، وليُرَدّ السلامُ عليّ.

٣- غضّ البصر عن الحرم، قال الله: ((قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ)) [النور: ٣٠].

يقول تعالى ذكره لنبيه ﷺ ((قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ)) بالله وبك يا محمد ((يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ)) يكفوا من نظرهم إلى ما يشتهون النظر إليه، مما قد نهاهم الله عن النظر إليه ((وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ)) أن يراها من لا يحلّ له رؤيتها، بلبس ما يسترها عن أبصارهم ((ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ)) يقول فإن غضها من النظر عما لا يحلّ النظر إليه، وحفظ الفرج عن أن يظهر لأبصار الناظرين؛ أطهر لهم عند الله وأفضل ((إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ)) إن الله ذو خبرة بما تصنعون أيها الناس فيما أمركم به من غض أبصاركم عما أمركم بالغضّ عنه، وحفظ فروجكم عن إظهارها لمن نهاكم عن إظهارها له[١].

والمرأة المسلمة، مأمورة بذلك أيضا، قال الله: ((وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ)) [النور: ٣١]،

عن أَبي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: ((إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ عَلَى ابْنِ آدَمَ حَظَّهُ مِنَ الزِّنَا، أَدْرَكَ ذَلِكَ لاَ مَحَالَةَ، فَزِنَا العَيْنِ النَّظَرُ، وَزِنَا اللِّسَانِ المَنْطِقُ، وَالنَّفْسُ تَمَنَّى وَتَشْتَهِي، وَالفَرْجُ يُصَدِّقُ ذَلِكَ كُلَّهُ وَيُكَذِّبه))[٢].

٤- أن تتقي المرأة المسلمة ربّها، فإن احتاجت النزول إلى السوق، فلتلزم الأدب والحِشْمة في ثيابها ومشيتها وحالها كله، ولتمتنع عن الطِّيب عند خروجها من بيتها كلية، ومتى انقضى الغرض المطلوب عادت المرأة إلى بيتها، قال الله: ((وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا

---

(١) تفسير الطبري (١٩/ ١٥٤).

(٢) أخرجه البخاري (٦٢٤٣).

تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلاَةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا)) [الأحزاب: ٣٣]. أي لا تكثرن الخروج متجملات أو متطيبات، كعادة أهل الجاهلية الأولى، الذين لا علم عندهم ولا دين، فكل هذا دفع للشر وأسبابه(١).

وَعَنْ أبي موسي الْأَشْعَرِيِّ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ((أَيُّمَا امْرَأَةٍ اسْتَعْطَرَتْ فَمَرَّتْ عَلَى قَوْمٍ لِيَجِدُوا مِنْ رِيحِهَا فَهِيَ زَانِيَةٌ))(٢).

وسبب ذلك أَنَّهَا هَيَّجَتْ شَهْوَةَ الرِّجَالِ بِعِطْرِهَا وَحَمَلَتْهُمْ عَلَى النَّظَرِ إِلَيْهَا(٣).

٥- الرفق والسماحة بمن في السوق عامة وفي البيع والشراء خاصة، فَعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رضي الله عنهما أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: ((رَحِمَ اللَّهُ رَجُلاً سَمْحًا إِذَا بَاعَ، وَإِذَا اشْتَرَى، وَإِذَا اقْتَضَى))(٤).

فيه: الحضُ على السماحة وحسن المعاملة، واستعمال معالى الأخلاق ومكارمها، وترك المشاحة والرقة في البيع، وذلك سبب إلى وجود البركة فيه لأن النبي ﷺ لا يحض أمته إلا على ما فيه النفع لهم في الدنيا والآخرة(٥).

٦- الصدق والأمانة، عَنْ حَكِيمِ بْنِ حِزَامٍ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: ((الْبَيِّعَانِ بِالْخِيَارِ مَا لَمْ يَتَفَرَّقَا، فَإِنْ صَدَقَا وَبَيَّنَا بُورِكَ لَهُمَا فِي بَيْعِهِمَا، وَإِنْ كَذَبَا وَكَتَمَا مُحِقَ بَرَكَةُ بَيْعِهِمَ))(٦).

٧ - العدل وعدم التطفيف في الميزان، قال الله: ((وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ)) [المطففين: ١ - ٣].

---

(١) تفسير السعدي (ص: ٦٦٤).

(٢) أخرجه: النسائي (٥١٢٦)، وحسنه الألباني في التعليقات الحسان على صحيح ابن حبان (٤٤٠٧).

(٣) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٣/ ٨٣٨).

(٤) أخرجه: البخاري (٢٠٧٦).

(٥) شرح صحيح البخارى لابن بطال (٦/ ٢١٠)

(٦) أخرجه مسلم (٣٨٥٣)

وَيْلٌ كلمة عذاب، ووعيد وفسر الله المطففين بقوله: ((الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ)) يستوفونه كاملا من غير نقص ((وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ)) إذا أعطوا الناس حقهم الذي للناس عليهم بكيل أو وزن، ((يُخْسِرُونَ)) ينقصونهم ذلك، إما بمكيال وميزان ناقصين، أو بعدم ملء المكيال والميزان، أو نحو ذلك. فهذا سرقة لأموال الناس، وعدم إنصاف لهم منهم(١).

رابعا: حال النبي ﷺ في السوق:

إن رسولنا ﷺ كان يأتي الأسواق للتكسّب والبيع، ويراقب أسواق المسلمين، ويوجههم وينصحهم، ولذا عابه المشركون، ورأوا ذلك نقصًا في حقّه، فبرَّأه الله بقوله: ((وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا)) [الفرقان: ٧-٨].

إذا رأى شيئا نبه عليه وعلم برفق ولين ﷺ، فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ مَرَّ عَلَى صُبْرَةِ طَعَامٍ فَأَدْخَلَ يَدَهُ فِيهَا، فَنَالَتْ أَصَابِعُهُ بَلَلاً فَقَالَ: ((مَا هَذَا يَا صَاحِبَ الطَّعَامِ؟ قَالَ أَصَابَتْهُ السَّمَاءُ يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: أَفَلاَ جَعَلْتَهُ فَوْقَ الطَّعَامِ كَيْ يَرَاهُ النَّاسُ، مَنْ غَشَّ فَلَيْسَ مِنِّي))(٢).

ومن أخلاق النبي ﷺ أنه لم يكن بفاحش ولا متفحش ولا يرفع صوته عما ينبغي، فعَنْ أَبِي عَبْدِ اللهِ الجَدَلِيِّ قَالَ: سَأَلْتُ عَائِشَةَ عَنْ خُلُقِ رَسُولِ ﷺ فَقَالَتْ: لَمْ يَكُنْ فَاحِشًا، وَلاَ مُتَفَحِّشًا، وَلاَ صَخَّابًا فِي الأَسْوَاقِ، وَلاَ يَجْزِي بِالسَّيِّئَةِ السَّيِّئَةَ، وَلَكِنْ يَعْفُو وَيَصْفَحُ(٣).

أخي البائع: اتق الله، وراقبه في أحوالك كلها، واعلم بأن المال نعمة ليتّق الجميع ربَّهم في أحوالهم كلها، وليراقب كلٌّ ربَّه في أحواله كلها، وليتّق الباعةُ ربهم فيلزموا الصدق والأمانة ويحافظوا علي أموالهم لأن المال أمانة ولقد ملكه الله إياه وهو أمانة عنده وتصرّفه في ماله لا يكون تصرفًا سليمًا إلا إذا كان وفق الشرع، فإن تصرّف في المال التصرّف السيئ كان وَبَالاً

---

(١) تفسير السعدي (ص: ٩١٥)

(٢) أخرجه: مسلم (١٩٧).

(٣) أخرجه: الترمذي (٢٠١٦)، وصححه الألباني في مشكاة المصابيح (٥٨٢٠).

عليه. سيُسأل كلٌّ منا عن ماله: من أين اكتسبه، وفيما أنفقه؟ تسأل عن طريق الاكتساب: أهي طرق شرعية، أم طرق خبيثة؟ تسأل عن طرق الإنفاق: أأنفقت هذا المال فيما يرضي الله، أم أنفقته في معاصي الله؟ هل كان إنفاقك في أعمال صالحة تبقى لك بعد موتك، أو أنفقته في أعمال سوء، تتحمّل الأوزار والآثام يوم القيامة؟.

فعَنْ خَوْلَةَ الأَنْصَارِيَّةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: ((إِنَّ رِجَالًا يَتَخَوَّضُونَ فِي مَالِ اللَّهِ بِغَيْرِ حَقٍّ، فَلَهُمُ النَّارُ يَوْمَ القِيَامَةِ))(١).

وفي قوله: ((يتخوضون)) دليلٌ على أنهم يتصرفون تصرفا طائشا غير مبني على أصول شرعية، فيفسدون الأموال ببذلها فيما يضر، مثل من يبذل أمواله في الدخان، أو في المخدرات، أو في شرب الخمور، أو ما أشبه ذلك، وكذلك أيضا يتخوضون فيها بالسرقات، والغصب، وما أشبه ذلك، وكذلك يتخوضون فيها بالدعاوى الباطلة، كأن يدّعي ما ليس له وهو كاذب، وما أشبه ذلك فالمهم أن كل من يتصرف تصرفاً غير شرعي في المال- سواء ماله أو مال غيره- فإن له النار(٢).

خامسا: أمور متعلقة بالبيع:

لكن قبل ذلك ينبغي أن يُعلم بأن كثيرا من أخلاق أهل الإيمان قد تلاشت عند كثيرين في أبواب البيع والشراء، فأصبحت تجد المسلمين في بيعهم وشرائهم على أسوأ حالة كثير من الناس اليوم تذهب بركة بيوعهم وشرائهم لأنهم أناس جشعون، إذا ذكر المال طار من ذهنه ذكر الجنة والنار، أصبحت لا تشعر بالصدق عند بيعك وشرائك، اسمع هذه القصة لترى العجب في الصدق والأمانة والإخلاص في تبايع أولئك عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: ((اشْتَرَى رَجُلٌ مِنْ رَجُلٍ عَقَارًا لَهُ، فَوَجَدَ الرَّجُلُ الَّذِي اشْتَرَى العَقَارَ فِي عَقَارِهِ جَرَّةً فِيهَا ذَهَبٌ، فَقَالَ لَهُ الَّذِي اشْتَرَى العَقَارَ: خُذْ ذَهَبَكَ مِنِّي، إِنَّمَا اشْتَرَيْتُ مِنْكَ الأَرْضَ، وَلَمْ أَبْتَعْ مِنْكَ الذَّهَبَ،

(١) أخرجه: البخاري (٣١١٨).

(٢) شرح رياض الصالحين (٢/ ٥٣٨).

وَقَالَ الَّذِي لَهُ الأَرْضُ: إِنَّمَا بِعْتُكَ الأَرْضَ وَمَا فِيهَا، فَتَحَاكَمَا إِلَى رَجُلٍ، فَقَالَ: الَّذِي تَحَاكَمَا إِلَيْهِ: أَلَكُمَا وَلَدٌ؟ قَالَ أَحَدُهُمَا: لِي غُلاَمٌ، وَقَالَ الآخَرُ: لِي جَارِيَةٌ، قَالَ: أَنْكِحُوا الغُلاَمَ الجَارِيَةَ وَأَنْفِقُوا عَلَى أَنْفُسِهِمَا مِنْهُ وَتَصَدَّقَا))[1].

انظر إلى حسن المعاملة، والأمانة من الطرفين، ماذا كانت النتيجة، لقد قرب ذلك البيع والشراء بينهما حتى أصبحا متصاهرين، وفي المقابل تأمل في العلاقة بين الباعة والمشترين في هذا العصر، منذ أول لحظة يطأ المشتري بقدمه المحل، والبائع يفكر كيف يضحك عليه، والمشتري يضع في حسابه أن هذا عدو له يريد نهب ماله، وعلى إثرها تكون طريقة المساومة بينهما، ثم إذا قُدر بينهما تبايع تنتهي العلاقة بعد أول خطوة يضعها المشتري خارج المحل.

ومن كبريات مشاكل أسواقنا: قلة فقه الناس بأحكام البيوع، ورحم الله ذلك الزمن الذي كان لا يبيع أحد في السوق إلاّ وهو متأهل في مسائل البيوع، عارف لأحكامه، وقد كان في بعض أمصار المسلمين يمر الفقهاء على أصحاب الدكاكين، ويسألونهم عن عويص المسائل والباعة يجيبون، والذي لا يجيب يعزل من السوق، ولا يُسمح له بالبيع، فماذا عساك أن تقول عن باعة هذا الزمان الذي لا أظن أنه سيجيب لو سألته عن أبسط مسائل الطهارة.

قال الله تعالى: ((يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا)) [النساء: **٢٩**].

عن أبي سَعِيدٍ الْخُدْرِيَّ ﷺ يَقُولُ: قَالَ ﷺ: ((إِنَّمَا الْبَيْعُ عَنْ تَرَاضٍ))[2].

فالرضى شرط من شروط البيع وتمامه، فلا يجوز غصب إنسان على بيع أرضه أو مزرعته، ولو حصل هذا فالبيع غير صحيح ومثل ذلك لو علمت أن هذا البائع باع عليك حياءً وخجلاً، أُحرج منك، فباع عليك، فلا يجوز لك أن تشتري لأنه غير راضي.

---

(١) أخرجه البخاري (**٣٤٧٢**)

(٢) أخرجه ابن ماجه (**٢١٨٥**) وصححه الألباني في إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل (**١٢٨٣**)

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رضي الله عنهما أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ عَامَ الفَتْحِ وَهُوَ بِمَكَّةَ: ((إِنَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ حَرَّمَ بَيْعَ الخَمْرِ، وَالمَيْتَةِ وَالخِنْزِيرِ وَالأَصْنَامِ)) فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَرَأَيْتَ شُحُومَ المَيْتَةِ، فَإِنَّهَا يُطْلَى بِهَا السُّفُنُ، وَيُدْهَنُ بِهَا الجُلُودُ، وَيَسْتَصْبِحُ بِهَا النَّاسُ؟ فَقَالَ: ((لاَ، هُوَ حَرَامٌ))، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عِنْدَ ذَلِكَ:

((قَاتَلَ اللَّهُ اليَهُودَ إِنَّ اللَّهَ لَمَّا حَرَّمَ شُحُومَهَا جَمَلُوهُ، ثُمَّ بَاعُوهُ، فَأَكَلُوا ثَمَنَهُ))(١).

أي مع انتفاع الناس بها فهي ميتة يحرم بيعها، ويستثنى من الميتة، السمك والجراد، فيجوز بيعها ولو ميتاً فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: ((أُحِلَّتْ لَنَا مَيْتَتَانِ: الْحُوتُ، وَالْجَرَادُ))(٢).

وأن يكون البائع مالكا للسلعة التي سيبيعها، وفي قبضته وحوزته، أو في مستودعه، عَنْ حَكِيمِ بْنِ حِزَامٍ رضي الله عنه قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ يَأْتِينِى الرَّجُلُ فَيُرِيدُ مِنِّى الْبَيْعَ لَيْسَ عِنْدِى أَفَأَبْتَاعُهُ لَهُ مِنَ السُّوقِ؟ فَقَالَ: ((لاَ تَبِعْ مَا لَيْسَ عِنْدَكَ))(٣).

وأن يكون البائع قادرا على تسليمه، لأن ما لا يقدر على تسليمه، لا يصح بيعه، كبيع الطير في الهواء، والبيع في مثل هذه الحالة من الغرر والجهالة، وقد نهى النبي ﷺ عن بيع الغرر، فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: نَهَى رَسُولُ اللهِ ﷺ عَنْ بَيْعِ الْغَرَرِ(٤).

سادسا: من منكرات الأسواق:

١- الكذب في الكسب والمرابحة: عن أَبِي ذَرٍّ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: ((ثَلاَثَةٌ لاَ يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلاَ يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)) قَالَ: فَقَرَأَهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ ثَلاَثَ مِرَارًا، قَالَ أَبُو ذَرٍّ: خَابُوا وَخَسِرُوا، مَنْ هُمْ يَا

---

(١) اخرجه البخاري (٢٢٣٦).

(٢) أخرجه ابن ماجه (٣٢١٨) وصححه الألباني في الجامع الصغير وزيادته (٢١٠).

(٣) أخرجه أبى داود (٣٥٠٥) وصححه الألباني في مشكاة المصابيح (٢٨٦٧).

(٤) أخرجه مسلم (٣٨٠٠).

رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: الْمُسْبِلُ، وَالْمَنَّانُ، وَالْمُنْفِّقُ سِلْعَتَهُ بِالْحَلِفِ الْكَاذِبِ))(١).

المنفق سلعته بالحلف الكاذب: الذي يحلف كذبا ليزيد ثمن السلعة يقول: والله لقد اشتريتها بعشرة، وقد اشتراها بأقل من ذلك(٢).

٢- إخفاء العيب الذي يعلمه في السلعة، ويجب على من عرف ذلك أن يخبر المشترى بكذبه، فإن سكت مراعاة للبائع، كان شريكا له في الخيانة، عن حَكِيمِ بْنِ حِزَامٍ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ((البَيِّعَانِ بِالخِيَارِ مَا لَمْ يَتَفَرَّقَا، - أَوْ قَالَ: حَتَّى يَتَفَرَّقَا-، فَإِنْ صَدَقَا وَبَيَّنَا بُورِكَ لَهُمَا فِي بَيْعِهِمَا، وَإِنْ كَتَمَا وَكَذَبَا مُحِقَتْ بَرَكَةُ بَيْعِهِمَا))(٣).

٣-الشروط الفاسدة، واستعمال الربا: قال النبي ﷺ مَا بَالُ رِجَالٍ يَشْتَرِطُونَ شُرُوطًا لَيْسَتْ فِي كِتَابِ اللَّهِ، مَا كَانَ مِنْ شَرْطٍ لَيْسَ فِي كِتَابِ اللَّهِ فَهُوَ بَاطِلٌ، وَإِنْ كَانَ مِائَةَ شَرْطٍ، قَضَاءُ اللَّهِ أَحَقُّ، وَشَرْطُ اللَّهِ أَوْثَقُ))(٤)

مثل بيع المحرم والملاهي والصور المجسمة

قال الله تعالى: ((إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)) [النور: ١٩].

أي: الأمور الشنيعة المستقبحة المستعظمة، فيحبون أن تشتهر الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم موجع للقلب والبدن، وذلك لغشه لإخوانه المسلمين، ومحبة الشر لهم، وجراءته على أعراضهم، فإذا كان هذا الوعيد، لمجرد محبة أن تشيع الفاحشة، واستحلاء ذلك بالقلب، فكيف بما هو أعظم من ذلك، من إظهاره، ونقله(٥).

---

(١) أخرجه مسلم (٢٠٨).

(٢) شرح رياض الصالحين (٤/ ٢٨٨).

(٣) أخرجه البخاري (٢٠٧٩).

(٤) أخرجه البخاري (٢١٦٨).

(٥) تفسير السعدي (ص: ٥٦٤).

٤- الأيمان الكاذبة في البيع والشراء بل أصل اليمين في البيع والشراء ينبغي تركه، هذا إن كان حقًا، فكيف إذا كان باطلاً قال الله: ((إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلاً أُوْلَئِكَ لا خَلاقَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ وَلا يُكَلِّمُهُمْ اللَّهُ وَلا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)) [آل عمران: ٧٧].

٥- النجش وهو: الزيادة في ثمن السلعة لا يريد شراءها لكنه يزيد لأمر آخر، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: ((إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ، فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الحَدِيثِ، وَلاَ تَحَسَّسُوا، وَلاَ تَجَسَّسُوا، وَلاَ تَنَاجَشُوا، وَلاَ تَحَاسَدُوا، وَلاَ تَبَاغَضُوا، وَلاَ تَدَابَرُوا، وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا))[1].

(١) أخرجه البخاري (٦٠٦٦).

الأسباب الشرعية الجالبة للرزق

مقدمة قواعد مهمة أسباب شرعية تجلب الرزق والبركة.

مقدمة: لقد أصبح طلب الرزق وتدبير المعاش مما يشغل بال الكثير من الناس بل ويقلقهم، حتى سلكوا في سبيل الحصول عليه كل مسلك، وسعوا إليه بكل سبيل، وطغى حبّ المال وحب الماديات على كثير من المسلمين مما أثَّر بشكل كبير على الجوانب المعنوية في حياتهم، وهي الجوانب المهمة في حياة الإنسان كإنسانٍ أولا ثمّ كمسلمٍ له ثروة روحية كبيرة. والله سبحانه وتعالى عندما كتب مقادير الرزق، كتب أيضا وبيَّنَ الوسائل التي يطلب بها الرزق، وقسم سبحانه وتعالى هذه الوسائل إلى وسائل حسية ووسائل معنوية.

فأما الوسائل المحسوسة في طلب الرزق فإن الناس لا يجهلونها وهي الوسائل المشروعة المباحة التي ليس فيه ضرر على النفس ولا على الآخرين.

وأما الوسائل المعنوية في طلب الرزق والتي لا يلقي لها كثير من الناس بالا، وقد أشار الله تعالى إليها في كتابه العزيز، وهي الأمور المهمة التي يستجلب بها الرزق وتحلُّ بها البركة.

وقبل أن نبدأ في ذكر هذه الأسباب لابد من عدة مقدمات وهي:

ـ الرزق بيد الله تعالى وحده فلا يُطلب من غيره

قال تعالى { يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ}. [فاطر: **٣**] **وقال سبحانه** { وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ} [الذاريات: **٢٢**]

وقال تعالى {وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ } [هود: **٦**]

وقال تعالى{ وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ }

[العنكبوت: ٦٠]

لذلك قال النبي ﷺ، لابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما،: ((إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ)). (١)

ـ الذي تولى قسمة الأرزاق هو الله العليم الخبير.

فتقسيم الأرزاق بين الناس، لا علاقة له، بالحسب ولا بالنسب، ولا بالعقل والذكاء، ولا بالوجاهة والمكانة ولا بالطاعة والعصيان، وإنما يوزع جل جلاله رزقه على عباده، لحكمة هو يعلمها، فقد يعطي الوضيع، ويمنع الحسيب، وقد يعطي الكافر ويمنع المؤمن.

لذلك قال بعض الْحُكَمَاء: لَوْ جَرَتْ الْأَقْسَامُ عَلَى قَدْرِ الْعُقُولِ لَمْ تَعِشْ الْبَهَائِمُ. فَنَظَمَهُ أَبُو تَمَّامٍ فَقَالَ:

يَنَالُ الْفَتَى مِنْ عَيْشِهِ وَهُوَ جَاهِلُ. . . وَيُكْدِي الْفَتَى مِنْ دَهْرِهِ وَهُوَ عَالِمُ

وَلَوْ كَانَتْ الْأَرْزَاقُ تَجْرِي عَلَى الْحِجَا. . . هَلَكْنَ إِذَنْ مِنْ جَهْلِهِنَّ الْبَهَائِمُ(٢)

ـ ليس العطاء علامة الرضا ولا المنع علامة السخط

قَالَ عَبْدُ اللهِ بن مسعود رضي الله عنه،: إِنَّ اللَّهَ يُعْطِي الدُّنْيَا مَنْ يُحِبُّ وَمَنْ لاَ يُحِبُّ، وَلاَ يُعْطِي الإِيمَانَ إِلاَّ مَنْ يُحِبُّ. (٣)

وعَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ رضي الله عنه، عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، قَالَ: ((إِذَا رَأَيْتَ اللهَ يُعْطِي الْعَبْدَ مِنَ الدُّنْيَا مَا يُحِبُّ وَهُوَ مُقِيمٌ عَلَى مَعَاصِيهِ، فَإِنَّمَا هُوَ اسْتِدْرَاجٌ ثُمَّ تَلاَ رَسُولُ اللهِ ﷺ،: {فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ}. (٤)

وعن عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رضي الله عنه، قال: دَخَلْتُ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَهُوَ مُضْطَجِعٌ عَلَى حَصِيرٍ، فَجَلَسْتُ، وَإِذَا الْحَصِيرُ قَدْ أَثَّرَ فِي جَنْبِهِ، فَنَظَرْتُ بِبَصَرِي فِي خِزَانَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَإِذَا أَنَا بِقَبْضَةٍ

---

(١) رواه الترمذي (٢٥١٦) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢/ ١٣١٨)

(٢) أدب الدنيا والدين (ص: ٤٥)

(٣) مصنف ابن أبي شيبة (١٣/ ٢٩٣)

(٤) رواه أحمد (٤/ ١٤٥) والطبراني (٩١٣) وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (١/ ٧٧٤)

مِنْ شَعِيرٍ نَحْوِ الصَّاعِ فبكيتُ، قَالَ: ((مَا يُبْكِيكَ يَا ابْنَ الْخَطَّابِ)) قُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللهِ، وَمَا لِي لَا أَبْكِي وَهَذَا الْحَصِيرُ قَدْ أَثَّرَ فِي جَنْبِكَ، وَهَذِهِ خِزَانَتُكَ لَا أَرَى فِيهَا إِلَّا مَا أَرَى، وَذَاكَ قَيْصَرُ وَكِسْرَى فِي الثِّمَارِ وَالْأَنْهَارِ، وَأَنْتَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَصَفْوَتُهُ، وَهَذِهِ خِزَانَتُكَ، فَقَالَ: ((يَا ابْنَ الْخَطَّابِ، أَلَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ لَنَا الْآخِرَةُ وَلَهُمُ الدُّنْيَا؟))، قُلْتُ: بَلَى. (١)

ـ الأرزاق محتومة معلومة، فالرزق يطلبُ العبدَ كما يطلبه الأجل

عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: ((إِنَّ الرِّزْقَ لَيَطْلُبُ الْعَبْدَ كَمَا يَطْلُبُهُ أَجَلُهُ)). (٢)

وعَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنه، قَالَ: كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَرَأَى تَمْرَةً عَائِرَةً، فَأَعْطَاهَا سَائِلاً وَقَالَ: ((لَوْ لَمْ تَأْتِهَا لَأَتَتْكَ)). (٣)

وعَنْ جَابِرٍ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: ((لَوْ أَنَّ ابْنَ آدَمَ هَرَبَ مِنْ رِزْقِهِ كَمَا يَهْرُبُ مِنَ الْمَوْتِ لَأَدْرَكَهُ رِزْقُهُ كَمَا يُدْرِكُهُ الْمَوْتُ)). (٤)

عَنْ أَبِي أُمَامَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((إِنَّ رَوْحَ الْقُدُسِ نَفَثَ فِي رُوعِيَ أَنَّ نَفْسًا لَنْ تَمُوتَ حَتَّى تَسْتَكْمِلَ أَجَلَهَا وَتَسْتَوْعِبَ رِزْقَهَا فَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ وَلَا يَحْمِلَنَّ أَحَدَكُمُ اسْتِبْطَاءُ الرِّزْقِ أَنْ يَطْلُبَهُ بِمَعْصِيَةٍ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُنَالُ مَا عِنْدَهُ إِلَّا بِطَاعَتِهِ)). (٥)

ـ أسباب شرعية تستجلب الرزق والبركة

السبب الأول: تقوى الله تعالى والإيمان به.

جعل الله تعالى التقوى من الأسباب التي تجلب الرزق وتزيده، فقال: {وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ}. [الطلاق: ٣، ٢]

---

(١) رواه مسلم (١٤٧٩)

(٢) رواه ابن أبي عاصم في السنة (٢٦٤) وابن حبان (٣٢٣٨) وحسنه الألباني في صحيح الجامع (١/ ٣٣٦)

(٣) رواه ابن أبي عاصم في السنة (٢٦٥) وابن حبان (٣٢٤٠) وحسنه الألباني في صحيح الجامع (١/ ٣٣٦) والْعَائِرَة: هِيَ السَّاقِطَة عَلَى وَجْه الْأَرْض، وَلَا يُعْرَف مِنْ صَاحِبهَا.

(٤) رواه أبو نعيم في الحلية (٧/ ٩٠) وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٢/ ٩٢٩)

(٥) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (١٠/ ٢٧) وصححه الألباني في صحيح الجامع (١/ ٤٢٠)

فكل من اتقى الله ولازم مرضاته في جميع أحواله، فإن الله يثيبه في الدنيا والآخرة، ومن جملة ثوابه أن يجعل له فرَجاً ومخرجاً من كل شدة ومشقة، ويسوق إليه الرزق من وجه لا يحتسبه ولا يشعر به.

قَالَ قَتَادَةُ رحمه الله: {وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا} أَيْ: مِنْ شُبُهَاتِ الْأُمُورِ وَالْكَرْبِ عِنْدَ الْمَوْتِ، {وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ} وَمِنْ حَيْثُ لَا يَرْجُو أَوْ لَا يَأْمُلُ. (١)

يقول ابن كثير رحمه الله: أَيْ: وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ فِيمَا أَمَرَهُ بِهِ، وتَرَكَ مَا نَهَاهُ عَنْهُ، يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ مَخْرَجًا، وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ، أَيْ: مِنْ جِهَةٍ لَا تَخْطُرُ بِبَالِهِ. (٢)

ويقول الله تعالى: ((وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)) [الأعراف: ٩٦].

يقول السعدي رحمه الله: لو أن أهل القرى آمنوا بقلوبهم إيماناً صادقاً صدقته الأعمال، واستعملوا تقوى الله تعالى ظاهراً وباطناً بترك جميع ما حرَّم الله؛ لفتح عليهم بركات من السماء والارض، فأرسل السماء عليهم مدراراً، وأنبت لهم من الأرض ما به يعيشون وتعيش بهائمهم في أخصب عيش وأغزر رزق، من غير عناء ولا تعب، ولا كدٍّ ولا نصب. (٣)

وقال تعالى{ وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا } [الجن: ١٦]

عَنْ مُجَاهِدٍ: {لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا}. قَالَ: نَافِعًا كَثِيرًا، ولَأَعْطَيْنَاهُمْ مَالًا كَثِيرًا. تفسير الطبري (٢٣/ ٣٣٥)

وقال تعالى عن أهل الكتاب: { وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ } [المائدة: ٦٦]

السبب الثاني: كثرة الاستغفار والتوبة

---

(١) تفسير ابن كثير(٨/ ١٤٧)

(٢) تفسير ابن كثير(٨/ ١٤٦)

(٣) تفسير السعدي(ص: ٢٩٨)

ومن الأسباب التي تجلب الرزق الاستغفار والتوبة، يقول تعالى إخباراً عن نوح عليه السلام أنه قال لقومه: {فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً (١٠) يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً (١١) وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَاراً}. [نوح: ١٠-١٢].

يقول القرطبي رحمه الله: فِي هذه الآية والتي في هود دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الِاسْتِغْفَارَ يُسْتَنْزَلُ بِهِ الرِّزْقُ وَالْأَمْطَارُ. (١)

ويقول ابن كثير رحمه الله: أَيْ: إِذَا تُبْتُمْ إِلَى اللَّهِ وَاسْتَغْفَرْتُمُوهُ وَأَطَعْتُمُوهُ، كَثُرَ الرِّزْقُ عَلَيْكُمْ، وَأَسْقَاكُمْ مِنْ بَرَكَاتِ السَّمَاءِ، وَأَنْبَتَ لَكُمْ مِنْ بَرَكَاتِ الْأَرْضِ، وَأَنْبَتَ لَكُمُ الزَّرْعَ، وَأَدَرَّ لَكُمُ الضَّرْعَ، وَأَمَدَّكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ، أَيْ: أَعْطَاكُمُ الْأَمْوَالَ وَالْأَوْلَادَ، وَجَعَلَ لَكُمْ جَنَّاتٍ فِيهَا أَنْوَاعَ الثِّمَارِ، وَخَلَّلَهَا بِالْأَنْهَارِ الْجَارِيَةِ بَيْنَهَا. (٢)

وعَنِ الشَّعْبِيِّ رحمه الله، قَالَ: خَرَجَ عُمَرُ رضي الله عنه، يَسْتَسْقِي بِالنَّاسِ، فَمَا زَادَ عَلَى الِاسْتِغْفَارِ حَتَّى رَجَعَ، قَالُوا: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، مَا نَرَاكَ اسْتَسْقَيْتَ؟ قَالَ: لَقَدْ طَلَبْتُ الْمَطَرَ بِمَجَادِيحِ السَّمَاءِ الَّتِي يُسْتَنْزَلُ بِهَا الْمَطَرُ، ثُمَّ قَالَ: {اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا، يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا}. (٣)

وشكا رجل إلى الحسن البصري رحمه الله، الجدب فقال له: استغفر الله، وشكا آخر الفقر، فقال له: استغفر الله. وقال له آخر: ادع الله أن يرزقني ولداً، فقال له: استغفر الله. وشكا إليه رجلٌ جفاف بستانه، فقال له: استغفر الله. فقالوا له في ذلك: أتاك رجال يشكون أنواعاً فأمرتهم كلهم بالاستغفار. فقال: ما قلتُ من عندي شيئاً، إن الله تعالى يقول: ((فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً. .)). (٤)

---

(١) تفسير القرطبي (١٨/ ٣٠٢)

(٢) تفسير ابن كثير(٨/ ٢٣٣)

(٣) المطر والرعد والبرق لابن أبي الدنيا (ص: ١٠٦)

(٤) فتح الباري لابن حجر (١١/ ٩٨)

قال جعفر بن محمد لسفيان الثوري: يا سفيان إذا استبطأت الرزق فأكثر من الاستغفار فإن الله تعالى قال في كتابه {اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ}. (١)

ويقول تعالى عن هود أنه قال لقومه: ((وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ)) [هود: **٥٢**].

يقول ابن كثير رحمه الله: أمر هود عليه السلام قومه بِالِاسْتِغْفَارِ الَّذِي فِيهِ تَكْفِيرُ الذُّنُوبِ السَّالِفَةِ، وَبِالتَّوْبَةِ عَمَّا يَسْتَقْبِلُونَ مِنَ الْأَعْمَالِ السَّابِقَةِ وَمَنِ اتَّصَفَ بِهَذِهِ الصِّفَةِ يَسَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِ رِزْقَهُ، وَسَهَّلَ عَلَيْهِ أَمْرَهُ وَحَفِظَ عَلَيْهِ شَأْنَهُ وَقُوَّتَهُ. (٢)

ويقول تعالى أيضاً: ((وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعاً حَسَناً إِلَى أَجَلٍ مُسَمّىً وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ)) [هود: **٣**].

قال الشنقيطي رحمه الله: هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ الِاسْتِغْفَارَ وَالتَّوْبَةَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى مِنَ الذُّنُوبِ سَبَبٌ لِأَنْ يُمَتِّعَ اللَّهُ مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ؛ لِأَنَّهُ رَتَّبَ ذَلِكَ عَلَى الِاسْتِغْفَارِ وَالتَّوْبَةِ تَرْتِيبَ الْجَزَاءِ عَلَى شَرْطِهِ. وَالظَّاهِرُ أَنَّ الْمُرَادَ بِالْمَتَاعِ الْحَسَنِ: سَعَةُ الرِّزْقِ، وَرَغَدُ الْعَيْشِ، وَالْعَافِيَةُ فِي الدُّنْيَا. (٣)

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((مَنْ لَزِمَ الِاسْتِغْفَارَ، جَعَلَ اللَّهُ لَهُ مِنْ كُلِّ ضِيقٍ مَخْرَجًا، وَمِنْ كُلِّ هَمٍّ فَرَجًا، وَرَزَقَهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ)). (٤)

---

(١) صفة الصفوة (١/ ٣٩١)

(٢) تفسير ابن كثير (٤/ ٣٢٩)

(٣) أضواء البيان(٢/ ١٦٩)

(٤) رواه أحمد (١/ ٢٤٨) وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (ص: ٧٨٩)

فإن كنتَ ترغب في سعة الرزق ورغد العيش فسارع إلى الاستغفار بالقول والفعل، واحذر من الاقتصار على الاستغفار باللسان وحده، فإن هذا فعل الكذابين.

السبب الثالث: التوكل على الله تعالى

ومما يستجلب به الرزق: التوكل على الله تعالى، { وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ} [الطلاق: ٣] فمن تعلق قلبه بالله تعالى في جلب النفع ودفع الضر، وفوَّض إليه أمره، كفاه الله ما أهمَّه، واندفع عنه ما أغمَّه، ورزقه تعالى من كل ما ضاق على الناس. **فعن عُمَرَ بْن الْخَطَّابِ** رضي الله عنه: أَنَّهُ سَمِعَ نَبِيَّ اللهِ ﷺ، يَقُولُ: ((لَوْ أَنَّكُمْ تَتَوَكَّلُونَ عَلَى اللهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ، لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ تَغْدُو خِمَاصًا وَتَرُوحُ بِطَانًا)). (١)

يقول ابن رجب رحمه الله: هذا الحديثُ أصل في التوكُّل، وأنَّه من أعظم الأسباب التي يُستجلب بها الرزقُ.

وَقَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: تَوَكَّلْ تُسَقْ إِلَيْكَ الْأَرْزَاقُ بِلاَ تَعَبٍ وَلَا تَكَلُّفٍ. (٢)

وحقيقة التوكل كما يقول ابن رجب رحمه الله **هي:** صِدْقُ اعْتِمَادِ الْقَلْبِ عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي اسْتِجْلاَبِ الْمَصَالِحِ، وَدَفْعِ الْمَضَارِّ مِنْ أُمُورِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ كُلِّهَا، وَكِلَةُ الْأُمُورِ كُلِّهَا إِلَيْهِ. (٣)

فالمسلم مطالب بالأخذ بالأسباب مع عدم اعتماده عليها، بل يعتقد أن الأمر كله لله، وأن الرزق منه سبحانه وحده.

السببُ الرابع: صلة الرحم

ومن الأسباب الجالبة للرزق أيضاً صلة الرحم.

عن أَنَس بْن مَالِكٍ رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺقَالَ: ((مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُبْسَطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ، وَيُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ، فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ)). (١)

---

(١) رواه أحمد (١/ ٣٠)وصححه الألباني صحيح الجامع (٢/ ٩٣٢)

(٢) جامع العلوم والحكم (٣/ ١٢٦٦)

(٣) جامع العلوم والحكم (٢/ ٤٩٧)

وقد عنون البخاري رحمه الله على هذين الحديثين بقوله: (باب من بُسط له في الرزق بصلة الرحم). أي بسبب صلة الرحم.

وروى ابن حبان حديث أنس وعنون عليه بقوله: (ذكر إثبات طيب العيش في الأمن وكثرة البركة في الرزق للواصل رحمه).

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: ((تَعَلَّمُوا مِنْ أَنْسَابِكُمْ مَا تَصِلُونَ بِهِ أَرْحَامَكُمْ، فَإِنَّ صِلَةَ الرَّحِمِ مَحَبَّةٌ فِي الأَهْلِ، مَثْرَاةٌ فِي المَالِ، مَنْسَأَةٌ فِي الأَثَرِ)). (٢)

ومعنى قوله (مَثْرَاةٌ فِي الْمَالِ)، أَيْ: سَبَبٌ لِكَثْرَةِ الْمَالِ وقوله (مَنْسَأَةٌ): بِفَتْحِ الْهَمْزَةِ مَفْعَلَةٌ مِنَ النُّسَأِ وَهُوَ التَّأْخِيرُ (فِي الْأَثَرِ) بِفَتْحَتَيْنِ أَيِ: الْأَجَلُ، وَالْمَعْنَى: أَيُّ سَبَبٍ لِتَأْخِيرِ الْأَجَلِ وَمُوجِبٍ لِزِيَادَةِ الْعُمُرِ، وَقِيلَ: بَاعِثُ دَوَامٍ وَاسْتِمْرَارٍ فِي النَّسْلِ، وَالْمَعْنَى: أَنَّ يُمْنَ الصِّلَةِ يُفْضِي إِلَى ذَلِكَ. (٣)

فمن هم الأرحام، وبأي شيء تكون صلتهم؟

الأرحام هم الأقارب، وهم من بينك وبينهم نسب، سواء كنت ترثهم أم لا، وسواء كانوا ذا محرم أم لا.

وصلتهم تكون بأشياء متعددة: فتكون بزيارتهم والإهداء إليهم، والسؤال عنهم، وتفقد أحوالهم، والتصدق على فقيرهم، والتلطف مع غنيهم، واحترام كبيرهم، وتكون كذلك باستضافتهم وحسن استقبالهم، ومشاركتهم في أفراحهم، ومواساتهم في أحزانهم، كما تكون بالدعاء لهم، وسلامة الصدر نحوهم، وإجابة دعوتهم، وعيادة مرضاهم، ودعوتهم إلى الهدى، وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر، وتكون أيضاً بالمال، وبالعون على الحاجة، وبدفع الضرر، وبطلاقة الوجه، وغير ذلك.

---

(١) رواه البخاري (٢٠٦٧) (ينسأ له في أثره) يمد له في عمره ويؤخر أجله ويخلد ذكره.

(٢) رواه الترمذي (١٩٧٩) وصححه الألباني في صحيح الجامع (١/ ٥٧٠)

(٣) مرقاة المفاتيح (٧/ ٣٠٩٢)

السبب الخامس: المتابعة بين الحج والعمرة

المتابعة بين الحج والعمرة من أسباب سعة الرزق ويسر الحال، فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((تَابِعُوا بَيْنَ الحَجِّ وَالعُمْرَةِ، فَإِنَّهُمَا يَنْفِيَانِ الفَقْرَ وَالذُّنُوبَ كَمَا يَنْفِي الكِيرُ خَبَثَ الحَدِيدِ، وَالذَّهَبِ، وَالفِضَّةِ، وَلَيْسَ لِلْحَجَّةِ المَبْرُورَةِ ثَوَابٌ إِلَّا الجَنَّةُ)). (١)

السبب السادس: التفرغ للعبادة

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: يَقُولُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ: ((يَا ابْنَ آدَمَ تَفَرَّغْ لِعِبَادَتِي، أَمْلأْ صَدْرَكَ غِنًى، وَأَسُدَّ فَقْرَكَ، وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ، مَلأْتُ صَدْرَكَ شُغْلاً، وَلَمْ أَسُدَّ فَقْرَكَ)). (٢)

وعَنْ مَعْقِلِ بْنِ يَسَارٍ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " قَالَ رَبُّكُمْ تَعَالَى: ((ابْنَ آدَمَ تَفَرَّغْ لِعِبَادَتِي أَمْلأْ قَلْبَكَ غِنًى، وَامْلأْ يَدَيْكَ رِزْقًا، ابْنَ آدَمَ لَا تَبَاعَدْ عَنِّي فَأَمْلأْ قَلْبَكَ فَقْرًا، وَأَمْلأْ يَدَيْكَ شُغْلاً)). (٣)

ففي هذين الحديثين وعد الله تعالى مَنْ تفرغ لعبادته بشيئين هما: ملء قلبه بالغنى، ويديه بالرزق، وتوعَّد من لم يتفرغ بعقوبتين هما: ملء قلبه فقراً ويديه شغلاً، ومن المعلوم أن من أغنى الله قلبه لا يقرب منه الفقر أبداً، ومن ملأ الرزَّاق يديه رزقاً لا يفلس أبداً.

والتفرغ للعبادة ليس معناه ترك الكسب والانقطاع عن طلب الرزق والجلوس في المسجد ليلاً ونهاراً، وإنما المراد أن يكون العبد حاضر القلب والجسد أثناء العبادة، خاشعاً خاضعاً لله، مستحضراً عظمة خالقه ومولاه، مستشعراً أنه يناجي مالك الأرض والسماء.

السبب السابع: شكر الله تعالى

---

(١) رواه الترمذي (٨١٠) وصححه الألباني في صحيح الجامع (١/ ٥٦٠)

(٢) رواه الترمذي (٢٤٦٦) وصححه الألباني في صحيح الجامع (١/ ٣٨٨)

(٣) رواه الطبراني (٥٠٠) والحاكم ٤ / ٣٢٦وصحح إسناده ووافقه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٣/ ٢٢٩)

فقد قال تعالى: وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ [إبراهيم: ٧]، فعلَّق سبحانه المزيد بالشكر، والمزيد منه لا نهاية له.

قال عمر بن عبدالعزيز رحمه الله: قيِّدوا نعم الله بشكر الله، فالشكر قيد النعم وسبب المزيد.

وقال جعفر بن محمد لسفيان الثوري: يا سفيان إذا أنعم الله عليك بنعمة فأحببت بقاءها ودوامها فأكثر من الحمد والشكر عليها فإن الله عز وجل قال في كتابه {لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ}. (١)

وقال تعالى {وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ} [النمل: ٤٠]

قال القرطبي رحمه الله: أَيْ لَا يَرْجِعُ نَفْعُ ذَلِكَ إِلَّا إِلَى نَفْسِهِ، حَيْثُ اسْتَوْجَبَ بِشُكْرِهِ تَمَامَ النِّعْمَةِ وَدَوَامَهَا وَالْمَزِيدَ مِنْهَا. وَالشُّكْرُ قَيْدُ النِّعْمَةِ الْمَوْجُودَةِ، وَبِهِ تُنَالُ النِّعْمَةُ الْمَفْقُودَةُ. (٢)

النعمة وحشيةٌ، إن شُكِرَتْ قَرَّتْ، وإنْ كُفِرَتْ فَرَّتْ. (٣)

قال الحسن البصرى رحمه الله: إن الله ليمتع بالنعمة ما شاء فإذا لم يشكر عليها قلبها عذابا. (٤)

السبب الثامن: اللجوء إلى الله عند الفاقة

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ((مَنْ نَزَلَتْ بِهِ فَاقَةٌ فَأَنْزَلَهَا بِالنَّاسِ لَمْ تُسَدَّ فَاقَتُهُ، وَمَنْ نَزَلَتْ بِهِ فَاقَةٌ فَأَنْزَلَهَا بِاللَّهِ، فَيُوشِكُ اللَّهُ لَهُ بِرِزْقٍ عَاجِلٍ أَوْ آجِلٍ)). (٥)

---

(١) صفة الصفوة (١/ ٣٩١)

(٢) تفسير القرطبي (١٣/ ٢٠٦)

(٣) التمثيل والمحاضرة للثعالبي (ص: ٤١٦)

(٤) عدة الصابرين (ص: ١٢٠)

(٥) رواه الترمذي (٢٣٢٦) وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٢/ ١٠٤٤)

قطوف من

ترجمة شيخ الإسلام ومؤرخه الذهبي

الإمام الذهبي هو الإمام الحافظ المؤرخ أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي ولد رحمه الله سنة ثَلاَث وَسبعين وسِتمِائَة من الهجرة. (١)

كان والده شهاب الدين أحمد بن عثمان يمتهن صناعة الذهب المدقوق، وقد برع بها وتميز، فعُرف بالذهبي.

قال الصفدي في ترجمة والده: " برع في صناعة الذهب، وكان في يده مثل اللهب ". (٢)

وكان الذهبي رحمه الله تعالى واسع العلم جدا، غزير المعرفة بالعلوم الشرعية، من عقيدة، وفقه، وحديث، وقراءات، وأصول، وغيرها، مع فهمها على منهج السلف الصالح.

وكان رحمه الله رأسا في معرفة الحلال والحرام، إماما في الحديث وعلومه، ناقدا بصيرا، إماما في علم التراجم والتاريخ، قويا في السنة، شديدا على أهل البدعة، قائما بالحق، لا تأخذه في الله لومة لائم.

ومن أشهر مشايخه الذي أخذ عنهم، وتأثر بهم: شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله.

تلاميذه:

قال السبكي: " سمع مِنْهُ الْجمع الْكثير " (٣)

- الحافظ عماد الدين إسماعيل بن عمر بن كثير، صاحب التفسير.
- الحافظ زين الدين عبد الرحمن بن الحسن بن محمد السلامي.
- صلاح الدين خليل بن أبيك الصفدي.

---

(١) "طبقات الشافعية" (٩/ ١٠١)، "الرد الوافر" (ص ٣١).

(٢) "أعيان العصر وأعوان النصر" (١/ ٢٨٣)

(٣) "طبقات الشافعية" (٩/ ١٠٣).

- تاج الدين أبو نصر، عبد الوهاب بن علي السبكي. وغيرهم كثير

ثناء أهل العلم عليه:

وقد أثنى عليه وعلى علمه ودينه أهل العلم:

فقال ابن ناصر الدين الدمشقي رحمه الله في ترجمته:

" الشَّيْخ الامام الْحَافِظ الْهمام، مُفِيد الشَّام، ومؤرخ الإسلام ناقد الْمُحدثين وَإِمَام المعدلين والمجرحين: شمس الدّين أَبُو عبد الله مُحَمَّد بن أَحْمد بْن عُثْمَان التركماني الفارقي الأَصْل، الدِّمَشْقِي، ابْن الذَّهَبِيّ، الشَّافِعِي، ومشيخته بِالسَّمَاعِ والإجازة نَحْو ألف شيخ وثلاثمائة شيخ، وَكَانَ آيَة فِي نقد الرِّجَال، عُمْدَة فِي الْجرْح وَالتَّعْدِيل، عَالما بالتفريع والتأصيل، إِمَامًا فِي الْقرَاءَات، فَقِيها فِي النظريات، لَهُ دراية بمذاهب الْأَئِمَّة وأرباب المقالات، قَائِما بَين الْخلف بنشر السّنة وَمذهب السّلف " (١)

وقال ابن كثير رحمه الله:

" الشَّيْخُ الْحَافِظُ الْكَبِيرُ، مُؤَرِّخُ الْإِسْلاَمِ، وَشَيْخُ الْمُحَدِّثِينَ، شَمْسُ الدِّينِ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الذَّهَبِيُّ، خُتِمَ بِهِ شُيُوخُ الْحَدِيثِ وَحُفَّاظُهُ، رَحِمَهُ اللَّهُ "(٢)

وقال الصفدي رحمه الله:

" حَافظ لَا يجارى، وَلَافظ لَا يبارى، أتقن الحَدِيث وَرِجَاله، وَنظر علله وأحواله، وَعرف تراجم النَّاس، وأزال الإبهام فِي تواريخهم والإلباس، من ذهن يتوقد ذكاؤه، وَيصِح إِلَى الذَّهَب نسبته وانتماؤه، جمع الْكثير، ونفع الجم الْغَفِير، وَأكْثر من التصنيف، ووفر بالاختصار مُؤنَة التَّطْوِيل فِي التَّأْلِيف " (٣)

---

(١) "الرد الوافر" (ص ٣١).

(٢) "البداية والنهاية" (١٨/ ٥٠٠)

(٣) "الوافي بالوفيات" (٢/ ١١٤).

وقال تاج الدين السبكي رحمه الله:

" وَأما أستاذنا أَبُو عبد الله: فَبَصر لَا نَظِير لَهُ، وكنز هُوَ الملجأ إِذا نزلت المعضلة، إِمَام الوُجُود حفظا، وَذهب الْعَصْر معنى ولفظا، وَشَيخ الْجرْح وَالتَّعْدِيل، وَرجل الرِّجَال فِي كل سَبِيل، كَأَنَّمَا جمعت الْأمة فِي صَعِيد وَاحِد فنظرها، ثمَّ أَخذ يخبر عَنْهَا إِخْبَار من حضرها.

وَهُوَ الَّذِي خرّجنَا فِي هَذِه الصِّنَاعَة، وأدخلنا فِي عداد الْجَمَاعَة، جزاه الله عَنَّا أفضل الْجَزَاء، وَجعل حَظه من غرفات الْجنان موفر الْأَجْزَاء " (١)

وقال الحافظ جلال الدين السيوطي رحمه الله:

" طلب الحديث وله ثماني عشرة سنة، فسمع الكثير، ورحل، وعني بهذا الشأن، وتعب فيه، وخدمه، إلى أن رسخت فيه قدمه، وتلا بالسبع، وأذعن له الناس.

حكي عن شيخ الإسلام أبي الفضل ابن حجر أنه قال: " شربت ماء زمزم لأصل إلى مرتبة الذهبي في الحفظ "(٢)

وقال عنه الشوكاني رحمه الله:

" الْحَافِظ الْكَبِير المؤرخ. . . مهر فِي فن الحَدِيث، وَجمع فِيهِ المجاميع المفيدة الْكَثِيرَة.

قَالَ الْبَدْر النابلسي فِي مشيخته: كَانَ عَلامَة زَمَانه فِي الرِّجَال وأحوالهم، جيد الْفَهم، ثاقب الذِّهْن، وشهرته تغني عَن الإطناب فِيهِ " (٣)

---

(١) "طبقات الشافعية" (٩/ ١٠١).

(٢) "ذيل طبقات الحفاظ" (ص ٢٣١).

(٣) "البدر الطالع" (٢/ ١١٠).

مصنفاته:

له مصنفات كثيرة متنوعة، منها:

- "سير أعلام النبلاء".
- "تاريخ الإسلام".
- "الكاشف"..
- "ميزان الاعتدال"
- "المغني في الضعفاء".
- "مختصر سنَن الْبَيْهَقِيّ".
- "طبقات الْحفاظ".
- "طبقات الْقُرَّاء".
- "التجريد فِي أَسمَاء الصَّحَابَة".
- "تلخيص المستدرك".
- "مختصر تهذيب الكمال".
- "مختصر تَارِيخ نيسابور" للْحَاكِم.
- "مختصر ذيل ابْن الدبيثي".
- "مختصر الْمحلي" لِابْنِ حزم.
- "مختصر الزهد" للبيهقي.
- "مختصر الضعفاء" لابن الجوزي.

وغيرها من الكتب النافعة [1].

عقيدته:

كان رحمه الله على عقيدة أهل السنة والجماعة، ملتزما بها، منافحا عنها، داعيا إليها، ذابًّا عن شيوخها، وقد صنف فيها عدة مصنفات، منها:

- "كتاب العلو". - "كتاب العرش". - "كتاب الأربعين في صفات رب العالمين".
- "رسالة التمسك بالسنن والتحذير من البدع وغيرها".

وفاته:

تُوفِّي - رَحمَه الله تَعَالَى - لَيْلَة الِاثْنَيْنِ ثَالِث ذِي الْقعدَة، سنة ثَمَان وَأَرْبَعين وَسَبْعمائة، وَدفن من الْغَد بمقبرة الْبَاب الصَّغِير من دمشق. [1]

---

(١) وانظر: "طبقات الشافعية" (٩/ ١٠٤-١٠٥)، "ذيل طبقات الحفاظ" (ص ٢٣١)، "البدر الطالع" (٢/ ١١٠)، "الأعلام" للزركلي (٥/ ٣٢٦)

التعريف بكتاب سير أعلام النبلاء للذهبي

الإشادة بالكتاب

يعد من أعظم كتب التراجم التي تناولت كافة العصور إلى عصر المؤلف. وقد ترجم لكثير من الأعلام في مشارق الأرض ومغاربها.

إن هذا الكتاب العظيم الذي ألفه الحافظ الذهبي وختم به حياته لحقيق بالإكبار والإجلال من كل العلماء المنصفين في مختلف مجالات العلم والمعرفة؛ فجزاه الله عن العلم والعلماء أعظم الأجر والثواب.

وحقيق بأمة فيها هذا الحشد الهائل من العلماء، والمؤرخين، والشعراء أن ينظر إليها بعين الإكبار والإجلال. إنها أمة عظيمة أنجبت علماء أضاءوا بعلمهم الطريق للبشرية، فلا جرم أن يكون هؤلاء العلماء مفخرة للعرب والمسلمين في مختلف العصور والدهور.

عدد التراجم التي ترجم لها الذهبي

. وقد بلغت عدد التراجم للمترجمين في كتابه "**٥٩٦٤**" ترجمة. وقد كرر بعض هذه التراجم. وقد ترجم فيه للأعلام منذ بزوغ فجر الإسلام إلى سنة "**٧٣٩**هـ".

أفضل طبعات الكتاب

افضل الطبعات هي طبعة مؤسسة الرسالة تحقيق – شعيب وبشار عواد

عدد المجلدات: **٢٩** مجلد، الطبعة الثانية، فهي أرقى الطبعات من حيث التحقيق والطباعة والإخراج

تقسيم تراجم الذهبي إلى طبقات

وقد قسم كتابه إلى خمس وثلاثين طبقة. ولم يسر فيه على نسق واحد، فقد استوعبت الطبقة الأخيرة الخامسة والثلاثون ستة وثمانين عاما. بينما كان متوسط الطبقات بين خمسة عشر وستة

---

(١) "الرد الوافر" (ص ٣١).

عشر عاما. وبلغت بعض الطبقات تسع سنوات فقط مثل الطبقة السادسة عشرة.

. وقد ترجم الذهبي لبعض الملوك والأمراء وإخوتهم وأولادهم وذراريهم في موضع واحد وإن لم يكونوا من نفس طبقاتهم ليجعل القارئ متابعا للأحداث التي عادة ما تكون متصلة.

طبيعة تراجم السير وأسس انتقائها

عرفنا من دراستنا لسيرة الذهبي أنه كان عالما، واسع الاطلاع، غزير المعارف ولا سيما في التراجم، وهو الحقل الذي ألف فيه مجموعة من الكتب وبرع فيه البراعة التي جعلت العلماء يجمعون على أنه "مؤرخ الإسلام"، وألف كتابه العظيم "تاريخ الإسلام" الذي احتوى على قرابة أربعين ألف ترجمة، وبذلك كانت لديه حصيلة ضخمة من التراجم كان عليه أن ينتقي منها ما يراه مناسبا لكتابه " السير "، فهل كانت لديه خطة معينة سار عليها في ذلك؟ والجواب: إن دراستنا للكتاب تبين أنه سار وفق خطة مرسومة في الانتقاء، سواء أكان ذلك في انتقاء التراجم أم في انتقاء المادة المذكورة في كل ترجمة، وقد انطلق في كل ذلك من ميزانه الذي وزن به المترجم من جهة، والأخبار التي تجمعت لديه عنه من جهة أخرى، وهو في كل ذلك إنما يصدر عن مفهومه المعين لفائدة كتاب من مثل سير أعلام النبلاء.

ولعلنا نستطيع فيما يأتي أن نتبين أسس انتقاء التراجم:

١- **العلمية:** كان الذهبي قد أورد في "تاريخ الإسلام" جميع المشاهير والأعلام، ولم يورد المغمورين والمجهولين، وقد استعمل الذهبي لفظ " الأعلام ليدل على المشهورين جدا بعرفه هو لا بعرف غيره، ذلك أن مفهوم "العلم" يختلف عند مؤلف وآخر استنادا إلى عمق ثقافته.

٢- **الشمول النوعي**: ولم يقتصر الذهبي في سير أعلام النبلاء على نوع معين من الأعلام، بل تنوعت تراجمه فشملت كثيرا من فئات الناس، من الخلفاء، والملوك، والأمراء والسلاطين، والوزراء، والنقباء، والقضاة، والقراء، والمحدثين، والفقهاء، والأدباء، واللغويين، والنحاة، والشعراء، وأرباب الملل والنحل والمتكلمين والفلاسفة، ومجموعة من المعنيين بالعلوم الصرفة.

ومع أن المؤلف قصد أن يكون "السير" شاملا لجميع أعلام الناس، إلا أننا وجدناه يؤثر المحدثين على غيرهم، لذلك جاءت الغالبية العظمى من المترجمين من أهل العناية بالحديث النبوي الشريف رواية ودراية.

٣- الشمول المكاني: وقد عمل المؤلف أن يكون كتابه شاملا لتراجم الأعلام من كافة أنحاء العالم الإسلامي من الأندلس غربا إلى أقصى المشرق، وهو شمول قل وجوده في كثير من الكتب العامة التي تناولت تراجم المسلمين.

٤- طول التراجم وقصرها: وهذه من الأمور الواضحة لمطالع الكتاب، فقد نجد ترجمة لا تزيد على بضعة أسطر، بينما نجد ترجمة أخرى قد تبلغ صفحات عديدة.

صياغة تراجم سير أعلام النبلاء وعناصرها

تختلف المادة الموجودة في ترجمة ما من تراجم سير أعلام النبلاء عن الأخرى حسب طبيعة المترجم له وقيمته العلمية أو الأدبية أو مكانته السياسية من جهة، وتتوحد في الأسس العامة لمكونات الترجمة من جهة أخرى.

ولا نجد تناقضا في ذلك، فالذهبي يعنى في معظم التراجم بذكر اسم المترجم ونسبه، ولقبه وكنيته ونسبته، ثم مولده أو ما يدل على عمره، ونشأته ودراسته وأخذه عن الشيوخ الذين التقى بهم وروى عنهم، وأفاد منهم، ثم تلامذته الذين أخذوا عنه وانتفعوا بعلمه، وتخرجوا به، وما خلف من آثار علمية أو أدبية أو اجتماعية، ويبين بعد ذلك منزلته العلمية وعقيدته من خلال أقاويل العلماء الثقات فيه جرحا وتعديلا ممن كان وثيق الصلة به، ثم غالبا ما ينهي الترجمة بتحديد تاريخ وفاة المترجم ويدقق في ذلك تدقيقا بارعا.

والمؤلف في الوقت نفسه يذكر في كل ترجمة أمورا متفرقة تتصل بطبيعتها، فهو يعنى مثلا بإيراد أعمال الخلفاء والملوك والأمراء والمتولين في تراجمهم، ويركز عنايته على ما قاموا به من نشر عدل أو بث ظلم أو سفك دماء.

وهو يعنى بإيراد نماذج من شعر الشعراء ومختارات من نثر الأدباء، وأقوال للمتفلسفين وأرباب المقالات بما ينبئ عن حسن عقيدتهم أو سوئها ونحو ذلك.

المنهج النقدي عند الذهبي في السير

وقد اعتنى الذهبي في سير أعلام النبلاء بكل أنواع النقد، فلم يقتصر على مجال واحد من مجالاته، فقد عني بنقد المترجمين، وتبيان أحوالهم، وأصدر أحكاما وتقويمات تاريخية، وانتقد الموارد التي نقل منها، ونبه إلى أوهام مؤلفيها، وبرع في إصدار الأحكام على الأحاديث إسنادا ومتنا، وسحب ذلك على الروايات التاريخية.

١- نقد المترجمين:

يقوم نقد المترجم عند الذهبي عادة على إصدار حكم في الرجل وتبيان حاله جرحا أو تعديلا، وفي مثل هذه الحال قد يكتفي بآرائهم، أو يرد عليها، أو يرجح رأيا منها، وتكون نتيجة التعديل أو التجريح إصدار أحكام بعبارات فنية لها دلالاتها الدقيقة جدا نحو "ثقة" و"صدق"، و"وصويلح"، و"دجال"، و"متروك"، و"كذاب"، و"مجهول"، وما إلى ذلك مما فصله في مقدمة كتابه النفيس "ميزان الاعتدال".

٢- نقد الأحاديث والروايات:

أكثر الإمام الذهبي من إيراد الأحاديث النبوية الشريفة في كتبه التاريخية وغيرها، ومنها كتابه "سير أعلام النبلاء". وقد عني دائما بالتعليق على هذه الأحاديث من حيث الإسناد والمتن ما استطاع إلى ذلك سبيلا، قال تلميذه الصلاح الصفدي: "وأعجبني منه ما يعانيه في تصانيفه من أنه لا يتعدى حديثا يورده حتى يبين ما فيه من ضعف متن أو ظلام إسناد، أو طعن في رواته، وهذا لم أر غيره يراعي هذه الفائدة فيما يورده".

وقد انتقد الإمام الذهبي الحافظين: أبا نعيم الأصبهاني والخطيب البغدادي، وذنبهما بروايتهما الموضوعات في كتبهما وسكوتهما عنها.

٣ - التعصب والإنصاف في النقد:

كان من منهج الذهبي نقل آراء الموافقين والمخالفين في المترجم ليقدم صورة كاملة عنه، وهو طابع عام في كتابه تجده في كل ترجمة من تراجمه، بينما اقتصر آخرون على إيراد المدائح في كتبهم مثل السبكي "ت: ٧٧١ هـ" وغيره.

وقد عرفنا من حياة الذهبي أنه رافق الحنابلة، وتأثر بشيخه ابن تيمية لا سيما في العقائد، فكان شافعي الفروع، حنبلي الأصول، ولذلك عني عند النقد بإيراد العقائد على طريقة أهل الحديث، وعدها جزءا منه كما بينا قبل قليل.

ووجدنا في البيئة الدمشقية في الوقت نفسه من يتعصب للأشاعرة غاية التعصب. وبسبب العقائد انتقد الذهبي من بعض معاصريه لا سيما تلميذه تاج الدين عبد الوهاب السبكي "٧٢٨ - ٧٧١هـ"، في غير موضع من كتابه "طبقات الشافعية الكبرى"، وفي كتابه الآخر "معيد النعم"، فقال في ترجمته من الطبقات: " كان شيخنا، والحق أحق ما قيل، والصدق أولى ما آثره ذو السبيل شديد الميل إلى آراء الحنابلة، كثير الازدراء بأهل السنة، الذين إذا حضروا كان أبو الحسن الأشعري فيهم مقدم القافلة، فلذلك لا ينصفهم في التراجم، ولا يصفهم بخير إلا وقد رغم منه أنف الراغم. صنف التاريخ الكبير، وما أحسنه لولا تعصب فيه، وأكمله لولا نقص فيه وأي نقص يعتريه".

وقد أثارت انتقادات السبكي هذه نقاشا بين المؤرخين، فرد عليه السخاوي "ت: ٩٠٢ه، " حيث اتهم السبكي بالتعصب الزائد للأشاعرة، ونقل قول عز الدين الكناني "ت: ٨١٩هـ" في السبكي: "هو رجل قليل الأدب، عديم الإنصاف، جاهل بأهل السنة ورتبهم".

وقال يوسف بن عبد الهادي "ت: ٩٠٩هـ" في معجم الشافعية: "وكلامه هذا في حق الذهبي غير مقبول فإن الذهبي كان أجل من أن يقول ما لا حقيقة له. . . والإنكار عليه أشد من الإنكار على الذهبي لا سيما وهو شيخه وأستاذه فما كان ينبغي له أن يفرط فيه هذا الإفراط".

ومع ذلك فإن هذه القضية جديرة بالدرس لأنها توضح أهمية كتاب الذهبي من جهة، ومنهجه ومدى عدالته في النقد والتحري من جهة أخرى.

جملة مختارة من أقوال الذهبي من كتابه سير أعلام النبلاء

ما أحوج الدعاة لعبادة ترسخ في قلوبهم

قال الذهبي رحمه الله: ولو تلا ورتل في أسبوع ولازم ذلك، لكان عملا فاضلا، فالدين يسر فوالله إن ترتيل سبع القرآن في تهجد قيام الليل مع المحافظة على النوافل الراتبة، والضحى، وتحية المسجد مع الأذكار المأثورة الثابتة، والقول عند النوم واليقظة ودبر المكتوبة، والسحر مع النظر في العلم النافع، والاشتغال به مخلصا لله مع الأمر بالمعروف وإرشاد الجاهل، وتفهيمه وزجر الفاسق ونحو ذلك، مع أداء الفرائض في جماعة بخشوع وطمأنينة وانكسار وإيمان، مع أداء الواجب واجتناب الكبائر، وكثرة الدعاء والاستغفار، والصدقة وصلة الرحم والتواضع، والإخلاص في جميع ذلك لشغل عظيم جسيم، ولمقام أصحاب اليمين وأولياء الله المتقين فإن سائر ذلك مطلوب. فمتى تشاغل العابد بختمة في كل يوم، فقد خالف الحنيفية السمحة، ولم ينهض بأكثر ما ذكرناه ولا تدبر ما يتلوه. اهـ[السير ٣/ ٨٤]

ما أحسن الصدق

قال الوليد بن مسلم سألت: الأوزاعي، وسعيد بن عبد العزيز، وابن جريج لمن طلبتم العلم كلهم يقول لنفسي غير أن ابن جريج فإنه قال: طلبته للناس.

فقال الذهبي رحمه الله معلقاً على كلامه: ما أحسن الصدق! ! واليوم تسأل الفقيه الغبي: لمن طلبت العلم فيبادر ويقول: طلبته لله، ويكذب إنما طلبه للدنيا، ويا قلة ما عرف منه. [السير ٦/ ٣٢٨]

من لازم قرع الباب فتح له

روى مسعر عن ابن عون قال: ذكر الناس داء، وذكر الله دواء.

فقال الذهبي رحمه الله معلقاً على كلامه: إي والله، فالعجب منا ومن جهلنا كيف ندع الدواء ونفتحم الداء؟! قال الله تعالى [فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ] [البقرة ١٥ [وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ

] [العنكبوت ٤٦] وقال: [الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ] [الرعد ٢٩]. ولكن لا يتهيأ ذلك إلا بتوفيق الله. ومن أدمن الدعاء ولازم قرع الباب فتح له. [السير ٦/ ٣٦٩]

طلب العلم لله

قال عون بن عُمارة: سمعت هشاما الدستوائي يقول: والله ما أستطيع أن أقول: أني ذهبت يوما قط أطلب الحديث أريد به وجه الله عز وجل.

فقال الذهبي رحمه الله معلقاً على كلامه: والله ولا أنا فقد كان السلف يطلبون العلم لله فنبلوا، وصاروا أئمة يقتدى بهم، وطلبه قوم منهم أولا لا لله، وحصلوه، ثم استفاقوا، وحاسبوا أنفسهم فجرهم العلم إلى الإخلاص في أثناء الطريق، كما قال مجاهد وغيره: طلبنا هذا العلم وما لنا فيه كبير نية، ثم رزق الله النية بعدُ، وبعضهم يقول: طلبنا هذا العلم لغير الله، فأبى أن يكون إلا لله. فهذا أيضا حسن. ثم نشروه بنية صالحة.

وقوم طلبوه بنية فاسدة، لأجل الدنيا وليثنى عليهم، فلهم ما نووا. وترى هذا الضرب لم يستضيؤوا بنور العلم، ولا لهم وقع في النفوس، ولا لعلمهم كبير نتيجة من العمل، وإنما العالم من يخشى الله تعالى. وقوم نالوا العلم، وولوا به المناصب، فظلموا، وتركوا التقيد بالعلم، وركبوا الكبائر والفواحش، فتبا لهم فما هؤلاء بعلماء! ! وبعضهم لم يتق الله في علمه، بل ركب الحيل، وأفتى بالرخص، وروى الشاذ من الأخبار. وبعضهم أجترأ على الله، ووضع الأحاديث فهتكه الله وذهب علمه، وصار زاده إلى النار. وهؤلاء الأقسام كلهم رووا من العلم شيئا كبيرا، وتضلعوا منه في الجملة، فخلف من بعدهم خلف بأن نقصهم في العلم والعمل، وتلاهم قوم انتموا إلى العلم في الظاهر، ولم يتقنوا منه سوى نزر يسير، أوهموا به أنهم علماء فضلاء، ولم يدر في أذهانهم قط أنهم يتقربون به إلى الله، لأنهم ما رأوا شيخا يفتدى به في العلم، فصاروا همجا رعاعا، غاية المدرس منهم أن يحصل كتبا مثمنة يخزنها وينظر فيها يوما

ما، فيصحف ما يورده ولا يقرره. فنسأل الله النجاة والعفو كما قال: بعضهم ما أنا عالم ولا رأيت عالما. [السير ٧/ ١٥٢-١٥٣]

الشبهة خطافة

وعن سفيان الثوري: من يسمع ببدعة فلا يحكها لجلسائه، لا يلقيها في قلوبهم.

فقال الذهبي رحمه الله معلقاً على كلامه: أكثر أئمة السلف على هذا التحذير، يرون أن القلوب ضعيفة، والشبه خطافة. [السير ٧/ ٢٦١]

السني مما شجر بين الصحابة رضي الله عنهم

قال الذهبي رحمه الله: م كلام الأقران إذا تبرهن لنا أنه بهوى وعصبية، لا يلتفت إليه، بل يطوى ولا يروى، كما تقرر عن الكف عن كثير مما شجر بين الصحابة وقتالهم رضي الله عنهم أجمعين، وما زال يمر بنا ذلك في الدواوين والكتب والأجزاء، ولكن أكثر ذلك منقطع وضعيف، وبعضه كذب، وهذا فيما بأيدينا وبين علمائنا، فينبغي طيه، وإخفاؤه بل إعدامه لتصفو القلوب، وتتوفر على حب الصحابة، والترضي عنهم، وكتمان ذلك متعين عن العامة وآحاد العلماء، وقد يرخص في مطالعة ذلك خلوة للعالم المنصف العري من الهوى، بشرط أن يستغفر لهم كما علمنا الله تعالى حيث يقول: [وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلاَ تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِّلَّذِينَ آمَنُواْ] [الحشر: ١٠].

فالقوم لهم سوابق، وأعمال مكفرة لما وقع منهم، وجهاد محاء، وعبادة مُمَحصة، ولسنا ممن يغلو في أحد منهم، ولا ندعي فيهم العصمة، نقطع بأن بعضهم أفضل من بعض، ونقطع بأن أبا بكر وعمر أفضل الأمة، ثم تتمة العشرة المشهود لهم بالجنة، وحمزة وجعفر ومعاذ وزيد، وأمهات المؤمنين، وبنات نبينا صلى الله عليه وسلم، وأهل بدر مع كونهم على مراتب، ثم الأفضل بعدهم مثل أبي الدرداء وسلمان الفارسي وابن عمر وسائر أهل بيعة الرضوان الذين رضي الله عنهم بنص آية سورة الفتح، ثم عموم المهاجرين والأنصار كخالد بن الوليد والعباس وعبد الله بن عمرو،

وهذه الحَلبة، ثم سائر من صحب رسول الله ﷺ وجاهد معه، أو حج معه، أو سمع منه، رضي الله عنهم أجمعين وعن جميع صواحب رسول الله ﷺ المهاجرات والمدنيات وأم الفضل وأم هانئ الهاشمية وسائر الصحابيات. فأما ما تنقله الرافضة وأهل البدع في كتبهم من ذلك، فلا نعرج عليه ولا كرامة، فأكثره باطل وكذب وافتراء، فدأب الروافض رواية الأباطيل، أو رَدُ ما في الصحاح والمسانيد، ومتى إفاقة من به سكران؟ [السير ١٠/ ٩٢-٩٣]

الرجوع إلى الحق

محمد بن الحسن بن علي بن بحر: حدثنا الفلاس قال: رأيت يحيى يوما حدث بحديث، فقال له عفان: ليس هو هكذا. فلما كان من الغد، أتيت يحيى فقال: هو كما قال عفان، ولقد سألت الله أن يكون عندي على خلاف ما قال عفان.

فقال الذهبي رحمه الله معلقاً على كلامه: هكذا كان العلماء، فانظر يا مسكين كيف أنت عنهم بمعزل. [السير ١٠/ ٢٤٨-٢٤٩]

الجاهل لا يعلم رتبة نفسه فكيف بغيره

قال ابن عقيل: من عجيب ما سمعته عن هؤلاء الأحداث الجهال، إنهم يقولون: أحمد ليس بفقيه، لكنه محدث. قال: وهذا غاية الجهل، لأن له اختيارات بناها على الأحاديث بناءً لا يعرفه اكثرهم، وربما زاد على كبارهم.

فقال الذهبي معلقاً على كلامه: احسبهم يظنونه كان محدثا وبس، بل يتخيلونه من بابه محدثي زماننا. ووالله لقد بلغ في الفقه خاصة رتبة الليث، ومالك، والشافعي، وأبي يوسف، وفي الزهد والورع رتبة الفضل، وابراهيم بن أدهم، وفي الحفظ رتبة شعبة، ويحيى القطان، وابن المديني، ولكن الجاهل لا يعلم رتبة نفسه، فكيف يعرف رتبة غيره؟! ! [السير ١١/ ٣٢١]

من يحق له الاجتهاد

قال الذهبي رحمه الله: نعم من بلغ رتبة الاجتهاد، ويشهد له بذلك عدة من الأئمة، لم يسغ له أن يقلد، كما أن الفقيه المبتدئ والعامي الذي يحفظ القرآن أو كثيرا منه لا يسوغ له

الاجتهاد أبدا، فكيف يجتهد، وما الذي يقول؟ ؟ وعلام يبني؟ ؟ وكيف يطير ولما يريش؟ ؟ والقسم الثالث: الفقيه المنتهي اليقظ الفهم المحدث، الذي قد حفظ مختصرا في الفروع وكتابا في قواعد الأصول، وقرأ النحو، وشارك في الفضائل مع حفظه لكتاب الله وتشاغله بتفسيره وقوة مناظرته، فهذه رتبة من بلغ الاجتهاد المقيد، وتأهل للنظر في دلائل الأئمة، فمتى وضح له الحق في مسألة، وثبت فيها النص، وعمل بها أحد الأئمة الأعلام كأبي حنيفة مثلا، أو كمالك، أو الثوري، أو الأوزاعي، أو الشافعي، وأبي عبيد، وأحمد، وإسحاق، فليتبع فيها الحق ولا يسلك الرخص، وليتورع، ولا يسعه فيها بعد قيام الحجة عليه تقليد، فإن خاف ممن يشغب عليه من الفقهاء فليتكتم بها ولا يتراءى بفعلها، فربما أعجبته نفسه، وأحب الظهور، فيعاقب ويدخل عليه الداخل من نفسه، فكم من رجل نطق بالحق، وأمر بالمعروف، فيسلط الله عليه من يؤذيه لسوء قصده، وحبه للرئاسة الدينية، فهذا داء خفي سار في نفوس الفقهاء. [السير ١٨/ ١٩٠- ١٩١]. (١)

(١) هذا وقد رتب شيخنا فضيلة الشيخ أحمد بن سليمان كتاب السير ترتيبا موضوعيا(كالعلم، والتقوى، والصدق. . . .) جمع فيه شتات ما فرق في التراجم ليصلح مادة يستطيع القارئ الاستفادة منها، أسماه بتحفة العلماء بترتيب سير أعلام النبلاء.

من واحة الشعر الدعوي

وَالوَقْتَ أَنْفَسُ ما عُنِيْتَ بِحْفظِهِ. . . وَأَرَاهُ أَسْهَلَ مَا عَلَيْكَ يضِيْعُ

كُلُ امْرِئٍ فِيمَا يَدِينُ يُدَانُ. . . سُبْحَانَ مَنْ لَمْ يَخْلُ مِنْ عِلْمِهِ مَكَانُ
يَا عَامِرَ الدُّنْيَا لِيَسْكُنَها وَمَا. . . هِيَ بالَّتي يَبْقَى بِهَا سُكَّانُ
تَفْنَى وتَبْقَى الأَرضُ بَعْدَكِ مِثْلَمَا. . . يَبْقَى المَكَانُ وتَرْحَلْ الرُّكْبَانُ
أَأُسَرُّ بالدنيا بكُلِّ زِيَادَةٍ. . . وزِيَادَتِيْ فِيهَا هِيَ النُقْصَانُ[١]

إِذَا شئتَ أَنْ تَلْقَى عَدُوَّكَ رَاغِمًا. . . فَتُحْرِقَهُ حُزْنًا وَتَقْتُلَهُ غَمًّا
فَعَلَيْكَ بالإِخْلاصِ وَالزُّهْدِ والتُّقَى. . . فَمَنْ فَازَ فِيهَا مَاتَ حُسَّادُهُ هَمًّا[٢]
وَلِمْ أَرَى كَالإِخْلاصِ للهِ وَحَدَهُ. . . وَلا مِثل تقوْاهُ وَإِكْثَارِ ذِكْرِهِ[٣]

وإني لآتي الذنب أعرف قدره. . . وأعلم أن الله يعفو ويغفرُ
لئن عظم الناس الذنوب فإنها. . . إن عظمت في رحمة الله تصغر[٤]

فوالله ما أدري أنفسي ألومها. . . على الحب أم عيني المشومة أم قلبي
فإن لمت قلبي قال لي العين أبصرت. . . وإن لمت عيني قالت الذنب للقلب
فعيني وقلبي قد تقاسمهما دمي. . . فيا رب كن لي عونًا على العين والقلب[٥]

---

(١) موارد الظمآن لدروس الزمان (١/ ٢)
(٢) موارد الظمآن لدروس الزمان (١/ ٣)
(٣) موارد الظمآن لدروس الزمان (١/ ٣)
(٤) موسوعة الأخلاق والزهد والرقائق (١/ ٩٠)
(٥) موسوعة الأخلاق والزهد والرقائق (١/ ٦٨)

الفهـــرس

أبناؤنا إلى أين؟ ومن المسئول عنهم؟..... ٢
الإيمان بالقـدر..... ٨
أفراح المسلمين بين المشروع والممنوع ١٧
الأسـواق أحكـام وآداب..... ٢٤
الأسباب الشرعية الجالبة للرزق ٣٤
قطوف من بستان الواعظين ٤٥
ترجمة شيخ الإسلام ومؤرخه الذهبي..... ٤٦
التعريف بكتاب سير أعلام النبلاء للذهبي ٥٠
جملة مختارة من أقوال الذهبي من كتابه سير أعلام النبلاء..... ٥٥
من واحة الشعر الدعوي..... ٦٠